المكتبة الثقافية
١٣٢

النيل
فى عصر المماليك

الدكتور محمود رزق سليم

الثقافة والإرشاد القومى
الدار المصرية للتأليف والترجمة


دار القلم

توزيع



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١
طنطا ميـــدان الساعة
ت : ٢٥٩٤

اول مايو ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يروى أنه فى قديم الزمان ، حدث تشقق فى المضبة الإفريقية الواسعة ، بفعل زلازل شديدة ، صدعت أرضها ، وشققت سطحها ، وأقامت فى بعض أجزائه أخاديد . ومن بينها كان أخدود ضيق ، هيأ للماء المنحدر من أعاليه فى الجهات الاستوائية والحبشية أن يتدفق فيملأ شعابه ويكون لنفسه مجرى ، ويسيل منحدرا نحو الشمال ، مارا بصعيد مصر ، ثم بوجهها البحرى ، مكونا فى أرضه دلتاه ، صابا فى البحر المتوسط جهة رشيد . ثم تفرع منه إلى الشرق فرع آخر ، اتجه شمالا نحو البحر المتوسط أيضاً صابا فيه بجوار دمياط . — ومن طمى هذا النهر كسا جانبيه ودلتاه طبقة خصبة . وكان لها منه على مدى الأيام غذاؤها وكساؤها — . ويفيض ماؤه كل عام فى موسم معين من السنة ، هو موسم الفيضان .

هذا الماء أو النهر ، هو النيل المبارك السعيد ، الذى أجراه

الله لمصر حياة لها ، ومدأ لوجودها ، ورزقا ميسرا لسكانها ، وأمنا وجمالا لقطانها .

ويجرى النيل فى مصر ، آتيا من السودان ، مرفودا من الحبشة بروافدها . فيمر على أسوان فى شق من الأرض ضيق ، حوله من كل جانب من جانبيه جبل ، هو جزء من الهضبة . ويستمر معه الجبلان إلى الشمال ، وهو يسير نحو دلتاه ، كأنهما حارسان . ويفصل كل جبل عن شاطىء النهر ، فاصل ضيق من أرض زراعية ، أخصبها نهر النيل وسقاها .

وارتبطت حياة مصر بالنيل ارتباطا وثيقا ـ كما ترى ـ فإنها هبته ومنحته ، كما قيل قديما . ولذلك وهبت له كل حبها وتقديسها . وبرز هذا الحب والتقديس ، منذ فجر التاريخ حتى اليوم بصور شتى .

لقد بلغ عند قدماء المصريين حد العبادة والتأليه وتقديم القرابين . وأضفى الخيال عليه ما شاءت له العاطفة . فشدوا به قصصا وأساطير ، وأغانى وتسابيح .

ولم تقصر مصر الإسلامية فى هذا المضمار ، ولم تحد عن هذا الحب والتقديس قيد أنملة . غير أنها لونته بألوانها الإسلامية ، واتبعت فيه منهجا لا يتجافى مع عقيدتها الدينية . وكان لذلك كله

صداه المديد ورجعه البعيد ، فى أدبها و نثرها وشعرها .

شغل النيل إذاً ، مشاعر مصر وتفكيرها ، على مدى الأزمان ، وفى كل فترة من فترات تاريخها . ومن بين هذه الفترات ، عصر سلاطين المماليك . وهو العصر الذى حكمها فيه عدد من سلاطين الأتراك والجراكسة ، بين سنتى ٦٤٨ هـ ، ٩٢٣ هـ . حتى أنهاه الاحتلال العثمانى البغيض .

ومن سلاطين المماليك : المعز أيبك ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وابنه الناصر محمد . وكانوا أتراكا . ومنهم : الأشرف قايتباى ، والأشرف قانصوه الغورى ، والأشرف طومان باى . وكانوا جراكسة .

والأشرف الغورى هو الذى استشهد فى موقعة «مرج دابق» عام ٩٢٢ هـ أثناء دفاعه عن البلاد ضد العثمانيين . والأشرف طومان باى هو الذى شنقه العثمانيون على باب زويلة ، عِقبَ الاحتلال .

وهؤلاء السلاطين وأمراؤهم وجنودهم المماليك ، طبقة عسكرية غريبة عن البلاد ، حكمتها بقوة فروسيتها وسلاحها . وعاشت فيها عيشة إقطاعية صارخة مستبدة ، عانى الشعب من ورائها ظلما شديداً وحرمانا مشقياً .

ولكن مصر ، على الرغم من ذلك ، استطاعت بهم أن تقوم بدور بطولى حاسم ، سجله لها التاريخ ، وهو دحر قوى التتار والصليبيين ، فأبادت جموعهم ودكت معاقلهم وأعادت الأسلاب من أيديهم ، وكفت أطماعهم عن الوطن العربى الكبير . هذا فضلا عن نهضتها فى مجال العلم والأدب .

ويصمها بعض الباحثين بأنها فى هذه الحقبة المكافحة ، إنما كانت تمر بدور ضعف وتأخر وانحطاط ، فيه تبلدت عاطفتها ، وجمدت مشاعرها ، وخبت جذوة أدبها . وأنها غفلت — فيما غفلت عنه — عن نيلها المبارك العظيم ، فلم تحس إزاءه بمثل ما كانت تحس به من قبل ، فنكرت بذلك فضله ، وجحدت يده . وعقت أبوته . وأنها إذا ذكرته يوما فى أدبها ، طغت عليها صناعة البديع ، وشغلها أدب الألفاظ ، فسدَّ ذلك مسالك عواطفها وعاق مشاعرها .

ونحاول هنا ، أن ننفى التهمة ، ونزيف الفرية ، بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع . ونؤكد أن شعب مصر ، كان فى عصر المماليك ، هو هو ، الشعب الوفى الذى لا يجحد الفضل ، ولا ينكر الصنيع ، وأنه لم يحد قط عن حب النيل وتقديسه ، والتغنى بأياديه ، بعاطفة مشبوبة ، وبأدب سمح لم تتخلف بشاشته .

واعتمادنا فى التدليل ، ما خلفه أبناء مصر من النصوص فى مجال العلم والأدب ، فى العصر المذكور .

من مؤلفاتهم

التى تحدثت عن النيل

قامت فى مصر فى عصر المماليك حركة علمية كريمة ، شمر فيها علماء مصر عن ساعد الجد ، وأعملوا الفكر ، وبذلوا الجهد ، ليبعثوا علوم الإسلام والعربية وآدابهما ، ما استطاعوا ، ليحافظوا على سلسلتها موصولة الحلقات إلى الأجيال القادمة من بعدهم .

وكانت بلاد الإسلام فى المشرق والمغرب ، قد أصيبت بضربات قاصمة ، كانت ذات آثار سيئة على تراث المسلمين العلمى والأدبى . إذ ابتلى العراق بالاحتلال التترى الذى أزال الخلافة العباسية جملة . وابتليت الأندلس بالفرنجة ينقصون أطرافها ويقصون جوانحها .

فكان لذلك رد فعل كبير فى مصر ، التى كانت تعيش نسبيا ، فى قوة ومنعة وعزة واستقلال ورخاء . فاندفعت واندفع علماؤها جاهدين ، لبعث علوم الإسلام والعربية وآدابهما . وتتابعت مؤلفاتهم فى نواحى العلم والأدب حتى خلفوا من ذلك ذخيرة قيمة ، هى مفخرة باقية لمصر وأبنائها .

ومن بين مؤلفاتهم كتب فى التاريخ بأنواعه ، وفى الخطط ، وفى تقويم البلدان . وقد تناولت هذه الكتب ، فيما تناولته بالحديث ، نهر مصر العظيم وهو النيل المبارك . فكان مدارا لبحثهم وميدانا لتحقيقهم حسبما سمحت لهم به ظروف العلم والتحقيق فى زمانهم . وكان إلى ذلك محلا لتفكيرهم ومراحا لخيالهم ومسرحا لحدسهم . واعتمدوا فيما تحدثوا به على أقوال من سبقهم من العلماء — العرب وغيرهم — وفيما سطروا ونقلوا كثير من الخيال والأسطورية .

وبدهى أنهم لم يبلغوا مقدار ما بلغه العلماء فى العصور الحديثة ، فى الدقة والتمحيص والوصول إلى الصواب الحاسم . إذ لم يتح لهم ما أتيح لهؤلاء من ميسرات الكشف والرؤية والاختبار والتمحيص .

ونعرض عليك فيما يلى ، بعض هذه المؤلفات . مع الإشارة إلى شىء مما تحدثوا به فيها عن النيل وما يتصل به . وذلك على سبيل التمثيل فقط ، لا الاستقصاء . وهى مرتبة بحسب وفيات المؤلفين . فمن ذلك :

١ — نهاية الأرب : للنويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو فى أكثر من ثلاثين مجلداً ، طبع بعضه ، ولا يزال بعضه

مخطوطاً . وهو فى التقويم ووصف الأرض والممالك ، وفى التاريخ والأدب .

وفى الجزء الأول منه عقد فصلا طويلا عن النيل ، نقل فيه أقوال قدامة بن جعفر وغيره ، وزاد عليها بعض معارفه فى عصره .

وقد أشار إلى انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار ويتصل بيطائح ـ بحيرات ـ ثم تخرج منها ـ على نحو ما سنشير إليه ـ . وتتبع مجرى النيل من لدن بحيرة « كُورّى » إلى السودان فالنوبة فأسوان وصعيد مصر حتى يصب فى بحر الروم ـ البحر المتوسط ـ .

وروى جملة من الأقوال والأحاديث فى فضائل النيل ومزاياه ومزايا مائه . وأشار إلى سبب فيضانه . وبسط حديثه بعض البسط عن مقدار الزيادة فى ماء النيل ودخولها إلى خلجانه ، واحتفال الناس بالوفاء إذا بلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعا . ونوه بالطريقة المتبعة فى زمانه فى رى الأرض من ماء الفيضان بوساطة الترع والجسور .

ومما قاله عن فرح أهل مصر واحتفالهم بوفاء النيل : « ويحصل لأهل مصر إذا وفى النيل ستة عشر ذراعا ـ وهى

قانون الرى - فرح عظيم ، بحيث أن السلطان يركب فى خواص دولته وأكابر الأمراء فى « الحراريق » إلى المقياس ، ويمد فيه سماطا يأكل منه الخواص والعوام . ويخلع على القيَّاس ويصله بصلة مقررة له فى كل سنة » .

ومن لطيف ما ذكره عن تعليل يوم الوفاء قوله : « وذكر أن بعض المفسرين يقولون : إن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع . وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » . ثم قال : « والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت » .

والتخليق طلاء عمود المقياس بالخَلوق ، وهو نوع من الطيب .

٢ - تقويم البلدان : لأبى الفداء اسماعيل المتوفى عام ٧٣٢هـ . وهو فى جغرافية بلدان كثيرة منها مصر .

وقد تكلم فيه عن النيل فى أكثر من موضع . وهو فى حديثه ونقله يبدو أكثر دقة وتعقلا . وقد ذكر منبع النيل ومجراه واتصاله بالبحيرات الاستوائية ، ومصبه فى بحر الروم ، وكثيراً من فضائله . واستهل حديثه عنه بقوله : « ذكر نيل

مصر ، وهو النهر العظيم المشهور الذى ليس له نظير فى الوجود » .

٣ — صبح الأعشى: للقلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ . تحدث فيه عن صناعة الإنشاء . وتطرق إلى ذكر ممالك الإسلام وجغرافيتها . وعقد فصلا فى الجزء الثالث بعنوان : « ذكر النيل ومبدئه وانتهائه وزيادته ونقصه وما تنتهى إليه زيادته ، وما تصل إليه فى النقص قاعدته » . وقد نقل كثيراً عن آراء بطليموس اليونانى . وهو معتمد كثير من علماء التقويم . وكذلك نقل عن أبى الفداء وغيره .

وتحدث كذلك عن فضائل النيل ، وعن ارتفاعاته المختلفة إلى يوم وفائه ، مؤرخا لها بأيام الشهور القبطية . وذكر أيام البشارة بالزيادة ، والمناداة عليها والإعلان بها . وشرح طريقة قياسها مع معلومات عن المقياس .

وأشار إلى عادات متصلة بالنيل قديما ، وعقد فصلا عن خلجان مصر وزروعها ورياحينها وفواكهها إلى غير ذلك .

٤ — الخطط المقريزية : للمقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . ولعلها أوسع كتب العصر تحدثا عن جغرافية النيل ومصر ، فيما تناولته من الخطط المصرية فى القاهرة والإسكندرية .

وفى الجزء الأول منها ، جملة فصول عن النيل وما يتصل به .

ومن ذلك فصل فى « ذكر شىء من فضائل النيل » وفصل فى « ذكر مخرج النيل وانبعاثه » وفصل فى « الرد على من اعتقد أن النيل من سيل يفيض » . وفصل فى « ذكر مقاييس النيل وزيادته» . وفصل فى «ذكر ماقيل فى ماء النيل من مدح وذم» . وفصل فى « ذكر عجائب النيل » . وفصل فى « ذكر ما كان يعمل فى أرض مصر من حفر الترع وعمارة الجسور » ونحو ذلك من أجل ضبط ماء النهر وتصريفه فى أوقاته . وفصل فى « ذكر أصناف الأراضى الزراعية فى مصر وأقسام زراعتها » . وهذه الأصناف تميز بحسب سقيها ومواعيده . ولكل منها دور زراعى ونوع من النبات ودرجة من الإنجاب . وفى هذا الفصل تحدث عن أهمية جسور النيل وخلجانه لأراضى مصر الزراعية . وعن أنواع الحبوب والمزروعات وطريقة زراعتها ومواعيدها ومكانها واحتياجاتها وموعد نضجها ومقدار غلتها ، وربط ذلك بماء النيل وفيضانه ونقصانه . إلى غير ذلك .

وفى الجزء الثانى منها جملة فصول أخرى . منها : فصل فى « ذكر ما يوافق أيام الشهور القبطية من الأعمال فى الزراعات وزيادة النيل وغير ذلك ، على ما نقله أهل مصر عن قدمائهم واعتمدوا عليه فى أمورهم » . وفصل فى « ساحل النيل بمصر

وما طرأ عليه من التغييرات والتحولات ، وما تجدد حوله من الأراضى التى انحسر عنها الماء ، وما اختفى مما طغى عليه وجرفه » . وذلك من لدن الفتح العربى إلى زمان المؤلف . وفصل فى « ذكر المنشأة » التى أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وزير صلاح الدين الأيوبى ، وكانت خارج القاهرة . وفيه تحدث عن النيل وبعض أراضيه وخلجانه . وفصل فى « ذكر طرف مما قيل فى القاهرة ومتنزهاتها » على جانبى النيل . ومنها أرض الطبالة وأرض القرط والكتان ، وبركة الفيل .

وفى الجزء الثالث عقد فصولا كثيرة العدد ، تحدث فيها عن خلجان مصر المستمدة من النيل ، كالخليج الكبير والخليج الناصرى . وعن القناطر المقامة عليها كقناطر الخليج وقنطرة السد . وعن البرك التى تستمد مياهها من النيل وكانت منازه للناس كبركة الحبش وبركة الرطلى . وعن الجسور المقامة على جوانبه وجوانب خلجانه كجسر الطبالة ، وجسر الروضة والجيزة . وعن الجزر البادية فى وسطه ، كجزيرة الروضة ، وعن بعض منازهها الهامة كالهودج . وفى أحد هذه الفصول تحدث عن « مقياس النيل » وتاريخه وصفاته وتقسيمه .

٥ — كوكب الروضة : للسيوطى أيضاً . وهو كتاب مخطوط .

تحدث فيه عن جزيرة الروضة وما يتصل بها . ومن ذلك نهر النيل . لقد تحدث فيه عن منبعه ومجراه ومصبه وخلجانه ومنازهه إلى غير ذلك ، ناقلا عمن سبقوه ، وما قيل فى ذلك من النثر أو الشعر أو الأخبار .

٦ — بدائع الزهور : لابن إياس المتوفى فى نحو عام ٩٣٠هـ . وموضوعه تاريخ مصر والقاهرة . وقد ضمنه المؤلف طرائف من أخبارها ومن ذلك أخبار النيل وفيضانه وارتفاعه ووفائه والاحتفال به وكسر سد خليجه . وذلك خلال يومياته .

وهناك مؤلفات أخرى كسلوك المقريزى والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ ، فقد عنيا بذكر أنباء الفيضان والوفاء فى أعقاب حوادث كل عام .

هذه بعض المؤلفات التى كتبها أبناء مصر فى عصر المماليك ، ونوهوا فيها بالنيل وما يتصل به ، فسجلوا بذلك مدى اهتمامهم به . وقد اعتمدنا عليها فى المعلومات التى سنقصها عليك فيما يلى . بالإضافة إلى دواوين النثر والشعر .

على أن شيئاً من خيالهم أو ظنونهم ، كان يحوم حول الحقيقة التي كشفها العلم حديثاً . كما سترى .

ولقد تتابعت أخيراً ، رحلات الكشف إلى منابع النيل ومساقط مياهه ومساربها في كل ناحية ، ودارت حوله من كل جانب . حتى رأى الكاشفون هذه المنابع على حقيقتها رأى العين وصوروها عن خبرة ومعاينة ووضعوا لها المصورات الموضحة الدقيقة . وأصبحت المعلومات عن النيل في هذه الناحية ، من مقررات العلم ومسلماته . وعاون على ذلك إمكانيات المعرفة الواسعة في العصور الحديثة .

ومجمل هذه المعلومات ، أن النيل ينبع من المنطقة الاستوائية ويمر على بحيراتها ، ويدخل أرض السودان في منطقة بحر الجبل ويسير إلى الشمال باسم النيل الأبيض ، ويلتقي بنهر سوباط والنيل الأزرق وعطبره ، ويتلقى منها المياه القادمة من الحبشة وبحيراتها وهي مياه فيضانه . ويصادفه عدة جنادل صخرية في طريقه ، ويدخل مصر بالقرب من حلفا ، فيمر على أسوان ، سائراً نحو الشمال ، حيث يتفرع إلى فرعيه ، فرع رشيد وفرع دمياط ، اللذين يصبان في البحر المتوسط .

والمنبع الاستوائي هو المنبع الدائم ، حيث تسقط الأمطار

الاستوائية الدائمة . والمنبع الحبشى هو المنبع الموسمى ، الذى تسقط فيه الأمطار الموسمية الصيفية هناك على جبال الحبشة ، بغزارة ، فتنحت ، وهى منهمرة ، جبالها وصخورها السوداء ، وتحيلها إلى هذا الغرين العجيب المخصب .

أما القدماء ، فقد ذهبوا مذاهب ، وهم مسحورون بجلال النيل ، كما سحر الأدباء والشعراء ، وهم فى تصورهم معذورون . إذ كانت وسائل الكشف وأدوات المعرفة لديهم قاصرة .

فمن أين يأتى هذا النهر المبارك العظيم ، وبهذا الفيض الغامر من الماء العذب المخصب ، فيهب الحياة والرزق ، ويبشر بالأمل والأمن والسعادة ؟

لا بد أنه يأتى من جهة مباركة مقدسة . . . لا بد أنه يأتى من الجنة . . . فهو إذاً كوثرها . .

إن شعراء مصر ، إلى وقتنا هذا ، يقول أحدهم :

النيل العذب هو الكوثر   والجنة شاطئه الأكبر

ولو أن هذا منه على سبيل التشبيه . .

ونحدثك فيما يلى ، بشىء من معارفهم فى هذا الصدد ، لنطلعك على مدى اهتمامهم بالنيل ومايتصل به ومدى شغله لبالهم. وليس من همنا هنا تمحيص فكرة ، ولا تقرير رأى ،

وإنما العرض الذى يشعرك بمدى الاهتمام — كما ذكرنا —

وروى عن المسعودى قوله : إن نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة .

منابع النيل ومجراه :

وتحدثوا عن منابع النيل ومجراه . فروى القلقشندى وقال ما ملخصه :

« أما ابتداؤه وانتهاؤه ، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب الذى هو جنوبى خط الاستواء . ولذلك عسر الوقوف على خبره .

وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر « إما بفتح القاف والميم كما هو المشهور . وإما بضم القاف وسكون الميم » .

وقال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور من عشرة مسيلات ، بين كل مسيلين منها درجة فى الطول — المقدم بيانه — والغربى منها ، وهو الأول عند طلوع ثمان وأربعين درجة . والثانى عند طلوع تسع وأربعين . وعلى ذلك حتى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين ، كل مسيل منها نهر . ثم تجتمع العشرة وتصب فى بطيحتين ، كل خمسة منها تصب فى بطيحة . ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار .

ثم تتفرع إلى ستة أنهار . وتسير الستة فى جهة الشمال حتى تصب فى بحيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببحيرة كورى . فيفترق النيل منها ثلاث فرق :

ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندى مقابل بلاد اليمن .

وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلى التكرور وغانة من مملكة مالى من بلاد السودان ، وتمر حتى تصب فى البحر المحيط الغربى عند جزيرة أوليل ، وتسمى « نيل السودان » .

وفرقة تأخذ شمالا — وهى نيل مصر — فيمر فى الشمال على بلاد زغاوة ، وهى أول ما يلقى من بلاد السودان . ثم يمر على بلاد النوبة حتى ينتهى إلى مدينتها دنقلة . ثم يمر شمالا بميله إلى الغرب إلى طول إحدى وخمسين وعرض سبع عشرة على حاله . ثم يمر مغربا بميلة قليلة إلى الشمال إلى طول اثنتين وثلاثين ، وعرض تسع عشرة . ثم يرجع مشرقا إلى طول إحدى وخمسين . ثم يمر فى الشمال إلى الجنادل : وهو الجبل الذى ينحدر عليه النيل بين منتهى مراكب النوبة فى انحدارها ومراكب مصر فى صعودها ، حيث الطول ست وخمسون درجة والعرض اثنتان وعشرون درجة ؛ ثم يمر شمالا إلى مدينة أسوان

فى أعمال الديار المصرية على القرب من الجنادل المقدمة الذكر .
ويمر شمالا بميلة إلى الغرب ، إلى طول ثلاث وخمسين ، وعرض أربع وعشرين ، ثم يشرق إلى طول خمس وخمسين ، ثم يأخذ فى الشمال حتى ينتهى إلى مدينة الفسطاط فى قواعد مصر المستقرة :

ويمتد فى جهة الشمال حتى يصير بالقرب من قرية تسمى « شطنوف » من قرى مصر . ويفترق فرقتين ، شرقية وغربية. فالشرقية تمر فى الشمال حتى « المنصورة » إحدى قرى المرتاحية. فتتشعب شعبتين ، تمر الغربية منهما — وهى العظمى — إلى دمياط وتصب فى بحر الروم . وتمر الشرقية منهما على أشموم طناح حتى تجاوز بلاد المنزلة وتصب فى بحيرة شرقى دمياط حتى بحيرة تِنِّيس .

والغربية تمر من شطنوف حتى قرية « أبى نشابة » فتتشعب شعبتين : الغربية منهما — وهى العظمى — تأخذ شمالا بين عمل البحيرة من شرقيها ، وبين جزيرة بنى نصر من غربيها . والشرقية تأخذ شمالا أيضا بين جزيرة بنى نصر من شرقيها . وبين عمل الغربية من غربيها . ويسمى هذا البحر « بحر أبيار » حتى يلتقى مع الفرقة الغربية عند قرية تسمى « الفرستق » فيصير شعبة واحدة تصب فى البحر الرومى غربى رشيد » .

وروى المقريزى قال :

« وذكر قوم من أهل الأثر ، أن الأنهار الأربعة ، تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم . وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل . وأن تلك الأرض من أرض الجنة ، وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك إلى البحر المظلم ، أحلى من العسل ، وأطيب رائحة من الكافور . »

وقيل : « إن جبل القمر يتشعب من الجبل المحيط بالأرض. ومن جبل القمر ينصب نهر النيل . وبه أحجار براقة كالفضة ، تتلألأ ، تسمى « ضحكة الباهت » . كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ، ويسمى مغناطيس الناس . »

وقيل : « ومن جبل القمر يخرج نهر النيل . وقد كان يتبدد على وجه الأرض . فلما قدم نقراوش الجدار بن مصرايم الأول ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام . إلى أرض مصر ، ومعه عدة من بنى عرياب ، واستوطنوها وبنوا بها مدينة « أمسوس ، وغيرها من المدائن ، حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم . ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى، بل ينبطح ويتفرق فى الأرض ، حتى وجه إلى النوبة الملك

نقراوش ، فهندسوه ، وساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها ، وساقوا منه نهرا إلى مدينة أمسوس .

ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان ، وكانت أيام البود شير ابن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، عدل جانبي النيل تعديلا ثانيا ، بعدما أتلفه الطوفان » .

وروى المقريزى أيضا أن قدامة بن جعفر ، ذكر فى كتاب الخراج : «أن انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار ، كل خمسة منها تصب إلى بطيحة. ثم يخرج من كل بطيحة نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة فى الإقليم الأول . ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل . »

وهو يريد بالبطيحة البحيرة .

وقال أيضا إن قدامة ذكر فى كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » : «أن هذه البحيرة — يقصد البطيحة — تسمى بحيرة كورى . وهى منسوبة لطائفة من السودان ، يسكنون حولها ، متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة . فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى و بلاد دينة — وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة

فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة ، وعطف من غربيها وانحدر إلى الإقليم الثانى ، فيكون على شطيه عمارة النوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم يشرق إلى الجنادل .

وقال أيضا : « إن المسعودى رأى فى كتاب جعفر ، النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر . ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عينا . فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا ، فيمر برمال هناك وجبال . ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج . فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ، ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ، وقيل ألف فرسخ ؛ فى عامر وغامر ؛ من عمران وخراب ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر » .

وروى أيضا أن فى كتاب « هروسوس » : « أن نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل إلى ناحية الغرب ، فيصير فى وسطه جزيرة : وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال ، فيسقى أرض مصر .

وقيل : إن مخرجه عن عين فيما يجاور الجبل ؛ ثم يغيب فى الرمال ثم يخرج غير بعيد ، فيصير له محبس عظيم . ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل إلى اليسار إلى أرض مصر ،

فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم ، إذا كان لمجراه على ما حكيناه » .

وقال : « ونهر النيل — وهو الذى يسمى باون ، مخرجه خفى . ولـكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة . ويصير له هناك محبس عظيم ، مجراه إليه مائتا ميل » .

وتحدث جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة ، عن منابع النيل ومجراه . فقال :

« قال صاحب سجع الهدير : ذكر جماعة من المنجمين وأرباب الهيئة ، أن النيل يجىء من خلف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة ونصف ، ويأخذ نحو الشمال إلى أن ينتهى إلى دمياط والإسكندرية وغيرها عند عرض ثلاثين فى الشمال .

قالوا : فمن بدايته إلى نهايته ، اثنتان وأربعون ومائة درجة ، كل درجة ستون ميلا وثلث بالتقريب . فيكون طوله من الموضع الذى يبتدىء منه ، إلى الموضع الذى منه البحر الملح ، ثمانية آلف ميل وستمائة وأربعة عشر ميلا وثلثى ميل ، على القصد والاستواء . »

وقال السيوطى : « ونقلت من خط الشيخ عز الدين بن جماعة من كتاب له فى الطب ، قال :

« منبع النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة و نصف . وامتداد هذا الجبل خمس عشرة درجة وعشرون دقيقة . يخرج منه عشرة أنهار من أعين فيه ، ترمى كل خمسة إلى بحيرة عظيمة مدورة . بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة . والبعد عن خط الاستواء فى الجنوب ، سبع درج وإحدى وثلاثون دقيقة .

وهاتان البحيرتان متساويتان . وقطر كل واحدة خمس درج ، ويخرج من كل واحدة أربعة أنهار ، ترمى إلى بحيرة صغيرة مدورة ، فى الإقليم الأول ، بعد مركزها عن أول عمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة ، وثلاثون دقيقة . وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأول ، وقطرها درجتان . ومصب كل واحد من الأنهار الثمانية فى هذه البحيرة غير مصب الآخر . ثم يخرج من هذه البحيرة نهر واحد ، وهو نيل مصر .

ويمر ببلاد النوبة ويصب إليه ، نهر آخر ، ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء ، فى بحيرة كبيرة مستديرة قطرها ثلاث درج ، وبعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب إحدى وسبعون درجة .

فإذا تعدى النيل مدينة مصر إلى مدينة يقال لها «شطنوف»

تفرق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح ، أحدهما يعرف ببحر رشيد ، والآخر بحر دمياط . وهذا البحر إذا وصل إلى المنصورة . تفرع منه نهر ، يعرف ببحر أشمون ، يرمى إلى بحيرة هناك . وباقيه يرمى إلى البحر المالح عند دمياط . »

هذا . وقد ذيل السيوطى هذا الحديث ، بمصور يوضح ما قاله أو نقله ، أبان فيه موضع البحيرات ومايصب فيها أويخرج منها من الأنهار أو الفروع — وهو نسق من مصور أبى الفداء ، تقريبا .

ونقل السيوطى أيضاً ما ذكره الجاحظ فى كتاب « الأمصار » أن مخرج نهر السند والنيل واحد . واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما ، وكون التمساح فيهما ، وأن سبيل زراعتهما فى البلد واحد .

رحلة كشف عن منابع النيل :

ومن طريف ما رواه الجغرافيون والمؤرخون فى هذا العصر ، وما تناقلوه ، قصة رحلة قام بها رجل من بنى العيص يقال له « حائد » ليكشف عن منابع النيل . وهى قصة قديمة ممعنة فى القدم ، يغلب عليها الحدس ، ويبدع فيها الخيال ، وتصورها النزعة الأسطورية الشائقة .

و « حائد » هو ابن أبى شالوم بن العيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . الذى عانى هذه الرحلة الشاقة وساير فيها مجرى النيــل ، حتى بلغ منابعه وكشفها ، فاستراحت نفسه . وتتلخص فيما يلى :

كان حائد هذا قد خرج هاربا من أحد الملوك ، حتى دخل أرض مصر ، فرأى أعاجيب نيلها . فنذر لله ألا يفارق ساحله ، حتى يبلغ منتهاه ، أو يموت دون بلوغه .

وقيل إنه سار ثلاثين سنة فى أرض عامرة ، وثلاثين أخرى فى أرض خربة . حتى انتهى إلى بحر أخضر ، فرأى النيل ينشق مقبلا . فصعد فوق البحر ، فإذا رجل قائم يصلى تحت شجرة تفاح . فسلم عليه وأنس به . فسأله الرجل وقال له : « من أنت » . فقال : « أنا حائد بن أبى شالوم : ومن أنت » فقال الرجل : « أنا عمران بن فلاق بن العيص بن إسحق ابن ابراهيم . » . فقال له حائد : « فما الذى جاء بك إلى هنا . » ؟ فقال الرجل : « جاء بى الذى جاء بك . حتى انتهيت إلى هذا الموضع . ثم أوحى الله إلى أن أقف حتى يأتينى أمره » . فسأله حائدعن أمرالنيل ، وهل يبلغه أحد من بنى آدم . فقال له عمران « نعم . بلغنى أن رجلا من ولد العيص ، يبلغه ، ولا أظنه غيرك

يا حائد » . فسأله حائد أن يدله على الطريق . فاشترط عليه عمران — قبل أن يدله — أنه إذا رجع يقيم معه حتى يوحى الله إليه بأمره . وإذا وجده ميتا دفنه . ثم أخذ يشرح له الطريق إلى منابع النيل ، وقال له : « سرْ كما أنت على هذا البحر ، حتى تشاهد دابة ، ترى أولها ولا ترى آخرها . فلا يهولنك أمرها . وهي معادية للشمس ، فإذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها ، فيحول بينهما حراس الشمس . وإذا غربت أهوت إليها لتبتلعها. فاركب هذه الدابة فإنها توصلك إلى النيل . فسر عليه حتى تبلغ أرضا من الحديد هي وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا من النحاس هي وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا من الفضة هي وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا من الذهب هي وجبالها وأشجارها وسهولها . فإذا جزت هذه الأراضى انتهى إليك علم النيل .

فسار حائد حتى بلغ أرض الذهب واجتازها . وإذا سور من ذهب ، وشرفة من ذهب ، وقبة من ذهب ، لها أربعة أبواب. فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر فى القبة ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة . فأما ثلاثة فتفيض فى الأرض

— وهى الفرات ودجلة وجيحان — وأما واحد فيسير على وجه الأرض ، وهو النيل . فشرب حائد من ماء النيل واستراح ثم اجتاز السور ليصعد . فأتاه ملك وقال له : « يا حائد قف مكانك ، فقد انتهى إليك علم النيل . وهذه هى الجنة ، وإنما ينزل النيل من الجنة . » فقال حائد : « أريد أن أنظر إليها . » فقال له الملك : « إنك لن تستطيع دخولها اليوم . » — ثم إن الملك جاء إليه من الجنة بعنقود من العنب ، فيه عنب أخضر كالزبرجد ، وعنب أحمر كالياقوت . وعنب أبيض كاللؤلؤ . وطلب إليه أن يأكل منه ولا يؤثر عليه شيئا من أكل الدنيا ، وأنه سيبقى معه العنب ما بقى هو حيا .

فعاد حائد ، وركب الدابة ، فأرجعته . ثم انتهى إلى موضع عمران ، فوجده ميتا ، فدفنه — وبينما هو كذلك وإذا بشيخ كالناس ، فى جبهته غرة من السجود ، فسلم عليه وسأله عن حاله ثم قدم إليه تفاحة ليأكل منها ، وزينها له . فأقبل حائد عليها بعد تردد — وكأنه آثرها على العنب — وإذا به يعض يده ...

ثم إنه عاد بعد ذلك إلى مصر ، فأخبره أهلها خبره ، وقص عليهم قصته ، ومات ودفن بها .

معلوماتهم عن فيضان النيل وأسبابه :

واهتموا بالحديث عن فيضان النيل وبيان أسبابه ، ونقلوا ما قيل فى هذا الموضوع ، وأضافوا إليه .

وقد روى المقريزى أن صاحب كتاب المسالك والممالك ، زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن إلى النيل ، تحت الأرض فيمده . لأنه يفيض فى الخريف . والعيون والآبار حينذاك ، يقل ماؤها والنيل يزيد .

وروى أيضا ما قيل من أن النيل يفيض عن سيل يسيل فيه . وشفع هذا القول بأدلته ثم أبطلها بأدلة أخرى .

وروى أيضا ما قيل من أنه يزيد بسبب المد الذى يكون فى البحر . فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضى .

ثم يلخص المقريزى ماراق له من الآراء فى منابع النيل وفيضانه منها ، بقوله :

« والذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر ، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد .

فأما كون مخرجه من جبل القمر ، فمسلم . إذ لا نزاع

فى ذلك . أما كون زيارته لاتكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك .

نعم : توالى هبوب الرياح الشمالية يعمل على وفور الزيادة ، وردع البحر له ، إعانة على الزيادة .

ومن تأمل النيل ، علم أن سيلا سال فيه ولابد . فإنه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ، ماؤه صافياً من الكدرة . فإذا فرغت أيام زيادته ، وكان فى غاية نقصه ، تغير طعمه ومال لونه إلى الخضرة ، وصار بحيث إذا وضع فى إناء ، يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش ، حتى يتغير ماؤها . فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى إلى أرض مصر . فيقال عند ذلك : « توحم النيل » .

ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ، ويزداد عكره بزيادة الماء . فإذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى إناء ، رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة . وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل ، حتى تكون زيادته منها » .

ومن طرائف مرويات جلال الدين السيوطى ، فى هذا الموضوع ، ما يتلخص فيما يأتى :

قال : واختلفوا فى سبب زيادته . فقال قوم : « لا يعلم ذلك إلا الله » . وقال آخرون : « سبب زيادته عيونه » .

وقال آخرون — وهو الظاهر — « سببه كثرة المطر والسيول ببلاد الحبش والنوبة . وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة » .

ورد ذلك قوم : « بأن عيونه التى تحت جبل القمر تتكدر فى أيام زيادته . فدل ذلك على أنه فعل الله من غير زيادته بالمطر » .

ونقل السيوطى ما رواه ابن عبد الحكم عن غيره ، قال : « لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أتى أهلها إليه ، حين دخل بئونة . فقالوا له : « أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنة لا يجرى إلا بها » . فقال لهم : « وما ذاك » . قالوا : « إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر أبويها ، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذ النيل » .

فقال لهم عمرو : « إن هذا لا يكون فى الإسلام . وإن الإسلام يهدم ما قبله » .

فأقاموا بئونة وأبيب ومسرى ، لا يجرى قليلا ولا كثيراً ، حتى هموا بالجلاء .

فلما رأى ذلك عمرو ، كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك . فكتب إليه عمر : « قد أصبت . إن الإسلام يهدم ما كان قبله . وقد بعثت إليك بطاقة ، فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى . »

فلما قدم الكتاب على عمرو ، فتح البطاقة ، فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قِبلك ، فلا تجر . وإن كان الواحد القهار يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » .

فألقى عمرو البطاقة فى النيل ، قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها . لأنه لا يقوم بمصلحتهم إلا النيل . فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً .

وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

مقياس النيل :

وكان لابد لفيضان النيل وزيادته ، من مقياس يعتمدون عليه فى معرفة الزيادة والنقصان ، لما لذلك من الأثر الحيوى فى حالة البلاد واقتصادياتها ومعنوياتها .

ومنذ القديم اهتمت مصر بقياس مياه النيل ، ونصبت له المقاييس ، ونقل علماؤها فى العصر المملوكى ، ما لمقاييس النيل من أخبار وحوادث .

ونجمل ما عرفوه من ذلك ، فيما يأتى :

أولا : مما عرفته مصر من مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها :

مقياس منف : وقيل إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه . ويبدو أنه ظل مستعملا معتمداً زمناً ما ، بعد دخول الإسلام .

ومقياس آخر : قيل إن دلوكة الملكة العجوز ، أقامته ببلاد إخميم ، وقيل إنها أقامت مقياساً آخر فى أنصناً .

ثانيا : مما عرفته مصر من مقاييس النيل بعد دخول الإسلام إليها :

مقياس : قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا ، وقيل عند حلوان .

ومقياس : بناه عبد العزيز بن مروان — حينما كان واليا على مصر — بحلوان ، وكان يسكن بها : وذلك عام ٨٠ هـ .

ومقياس : بناه أسامة بن زيد التنوخى — إذ كان عاملا على خراج مصر — بجزيرة الروضة أيام خلافة الوليد

ابن عبد الملك ، ثم أبطل ، و بنى بدلا منه مقياساً آخر فى الروضة كذلك عام ٩٧ ه فى خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومقياس : أقامه أو رممه ، الخليفة المأمون ، بجزيرة الروضة بدلا من مقياس أسامه بن زيد التنوخى بعد أن هدمه المـاء ، وذلك عام ١٩٩ ه ، ولـكنه لم يتمه ، فأتمه بعده الخليفة المتوكل العباسى عام ٢٤٧ ه : وهذا المقياس هو أكبر مقاييس النيل ، وقد بنى فى أيام ولاية يزيد بن عبد الملك ، على مصر ، وقد قدم من العراق المهندس محمد بن كثير ، فتولى أمر بنائه .

ومقياس : يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة أيضاً .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام ، مقياس منف . وأهمها بعد الإسلام وأكبرها ، مقياس الروضة الذى أتمه المتوكل العباسى ، وظل مستعملا فى عصر المماليك ، وأمر السلطان الأشرف قايتباى فى عام ٨٨٦و بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه .

عمليات هندسية قديمة لجمع ميـاه النيل وضبط مقاديرها وصرفها بمقياس :

وسجلوا فيما سجلوه من أخبار النيل ، قصة بعثة أرسلها أحد

ملوك مصر القدماء ، لهندسة منابع النيل ، ولضبط مياهه ومقاديرها ، توصلا إلى صرفها بمقياس وبمقدار .

وروى هذه القصة المقريزى نقلا عن إبراهيم بن وصيف شاه . وتتلخص فيما يلى :

« كان الملك البودشير — أحد ملوك مصر القدماء — قد ملك وتجبر ، وكان أول من تكهن وتعاطى عمل السحر واحتجب عن العيون .

ويقال إنه أرسل « هرمس » الكاهن المصرى إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته ، حتى عمل تماثيل من النحاس وعدّل البطيحة — البحيرة — التى ينصب فيها ماء النيل : ويقال إنه عدل أيضاً جانبي النيل وقد كان يفيض فى مواضع ، وربما انقطع فى مواضع .

وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس ، يشتمل على خمس وثمانين صورة . جعلها « هرمس » جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة وقنوات يجرى فيها الماء ، وينصب إليها إذا خرج من تحت جبل القمر ، حتى يدخل من تلك الصور ، ويخرج من حلوقها .

وجعل لها قياساً معلوما ، بمقاطع وأذرع مقدرة . وجعل

ما يخرج من هذه الصور من الماء ، ينصب إلى الأنهار ثم يصير منها إلى بطيحتين ، ويخرج منهما حتى ينتهى إلى البطيحة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل .

وعمل لتلك الصور مقادير من الماء الذى يكون معه الصلاح بأرض مصر ، وينتفع به أهلها دون الفساد . وذلك الانتهاء المصلح ، ثمانية عشر ذراعاً ، بالذراع الذى مقداره اثنان وثلاثون إصبعاً . وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها ، إلى مسارب يخرج منها ويصب فى رمال وغياض ، لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء . ولولا ذلك لغرّق ماء النيل البلدان التى يمر عليها .

صفات مياه النيل :

ووصفوا مياه النيل وذكروا مالها من المحاسن والمزايا ، وما لها من المساوىء والمضار ، ورووا فى ذلك أقوال أسلافهم من العلماء .

وقد روى المقريزى ما قاله الرئيس ابن سينا فى المياه الفاضلة وما اشترطه فيها . ثم قال : «واعتبر ماقاله ، تجد ذلك قد اجتمع فى ماء النيل .

فأوله : أن ماء النيل عين تمر على أرض حرة . ولا يغلب

على تربه مما يمر به ، شيء من الأحوال والكيفيات الرديئة ، كمعادن النفط والشب والأملاح والكباريت ونحوها ، بل يمر على الأراضى التى تنبت الذهب . بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب .

وقد عانى جماعة تحويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل ، فربحوا منه مالا . وفضيلة كون الذهب فى الماء لا تنكر .

الثانى : أن النيل فى جريانه أبداً مكشوف للشمس والرياح .

الثالث أن طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار ، تمر على أراض حرة . ويظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين إذا نديته بماء .

الرابع : غمورة ماء النيل وشدة جريه التى تكاد تقصف العمد ، إذا اعترضتها ، وتدفع الأثقال العظيمة إذا عارضتها .

الخامس : بُعد مبدأ خروجه من مصبه فى البحر المالح ، قال : وقد تقدم أن من طول مسافته ما لا نجده فى نهر غيره من أنهار المعمورة .

السادس : انحداره من علو . فإن الجنوب مرتفع عن الشمال لا سيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى وادى مصر » .

وهكذا ترى المقريزى قال — فيما قاله — إن ماء النيل فيه الذهب والعطر . .

وتحدث المقريزى عن مساوىء مياه النيل ومضارها . فكان مما قاله :

« وقد عاب ماء النيل قوم . قال أبو بكر بن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية :

وأما النيل فمخرجه من جبال وراء السودان ، يقال لها جبل القمر ، وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس . إنها أحرقته لا كل الإحراق ، بل أسخنته إسخانا طويلا لينا ، لاتزعجه الحرارة ، ولا تقوى عليه ، بحيث تبدد أجزاءه الراسخة ؛ بل يعتل عليه ، فصار ماؤه لذلك حلواً جداً . وصار كثرة شربه يعفن البدن ويحدث البثور والدماميل والقروح . وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين إلى استفراغ الدم عن أبدانهم فى كل مدة قصيرة . فمن كان عالما منهم بالطبيعة فهو يحسن مداراة نفسه ،حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل ، وإلا فهو يقع فيما ذكرناه من العفونات وانتشار البثر والدماميل .

وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه ، قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام الماء ، فصار إذا خالط الطعام

فى الأبدان ، كثر فيها الفضول الرديئة العفنة ، فيحدث من ذلك ما ذكرناه .

ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل ، إدمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة ، وأخذ الأدوية المستفرغة للفضول .

ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل ، وطال طبخها له لصار مالحاً بمنزلة ماء البحار الراكدة ، التى لاحركة لها إلاوقت جزرالبحر وهبوب الرياح. وهو أوفق للزروع والمنابت والحيوان»

وأورد المقريزى معلومات أخرى فى الموضوع نفسه ، مع تعليلات أخرى . فنكتفى بما سجلناه .

وهكذا ترى أنهم اهتموا بالنيل وما يتصل به من منبع ومجرى وفيضان وكشف عن منابعه ، وأخبار عنه وعن مقياسه وغير ذلك . بالمقدار الذى وسعته معارف زمانهم .



النيل فى حياتهم الاجتماعية

للنيل باعتباره نهر مصر المبارك ، والدعامة الأولى للحياة فيها ، نصيب كبير من عناية المصريين واهتمامهم على الدوام . وهو مشغلة لهم فى مقدمة مشاغلهم على مدى السنين والأعوام . ولا يزالون يهتمون به وبكل مايتصل به . ويستغرق هذا الاهتمام جانبا كبيراً من حياتهم الاجتماعية. ويتمثل فى عنايتهم بفيضانه ووفائه ، وصلة كمية مائه بزراعة أراضيهم ، وبمقياسه وجسوره وقناطره وسدوده وتصريف مياهه ، إلى غير ذلك ، ممـا هو مألوف فى الحياة المصرية .

وهـكذا كان شأن المصريين فى عصر المماليك .

وفيما يلى سطور وجيزة ، تصور لك مبلغ اهتمامهم به فى العصر المذكور ، من الوجهة العملية ومن واقع حياتهم .

فيضان النيـــل :

للنيل موسم فيضان فى كل عام. يرتفع فى إبانه ماؤه ، ويزيد فى مجراه رويداً رويداً ، فى شهر يوليو وأغسطس وسبتمبر . ويبلغ عادة فى شهر سبتمبر أقصى ارتفاع له . ويثبت فى أكتوبر

ونوفمبر ، أو يأخذ فى النقصان رويداً ، ثم ينقص إلى أن يشح ، ويبلغ نهاية نقصه فى إبريل ومايو ويونيو ، وهى شهور التحاريق .

وسبب فيضانه — كما نوهنا — هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة ، فى موسم الصيف ، لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها ، آتية من جهة الشرق ، ومارة بالمحيط ، ومحملة بالأبخرة . فتمتلىء وديان الحبشة بالماء وهى روافد النيل — سوباط والنيل الأزرق وعطبرة — وأهمها النيل الأزرق . فتتدفق فى مجراه مياهها ، وتربو على مياه منبعه الاستوائى الدائم .

ولم تكن هذه المعلومات معروفة لديهم معرفة دقيقة واضحة محددة ، كما هى معروفة لنا فى زماننا هذا . ولكنهم كانوا يعرفونها أو يعرفون بعضاً منها ، على نمط ما بيناه فى الفصل السابق .

وكانت معرفتهم بالفيضان فى بلادهم دقيقة . لأنهم يرونه فيها رأى العيان ، ولأنه ذو أثر مباشر فى حياتهم وزراعتهم . ولذلك عرفوا مواعيد بدئه وزيادته واطراد هذه الزيادة ، وحد الوفاء وما بعده . وضبطوه .

واعتادوا أن يضبطوا — كأسلافهم — مواعيد الفيضان ووقت الوفاء ، بالشهور القبطية . وذلك لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . وعلى هذا ارتبطت بها مواعيد الزراعة ، كما سنذكره .

ويبلغ النيل حد الوفاء — عادة — فى شهر مسرى ، وعند ذلك يعلنون باستحقاق الخراج .

وقد قال المقريزى : « ويبتدىء النيل بالتنفس والزيادة بقية بئونة ، وهو حزيران . وأبيب، وهو تموز . ومسرى ، وهو آب. فإذا كان الماء زائداً ، زاد شهر توت كله ، وهو أيلول . إلى انقضائه » .

وكان اعتماد الزراع فى مصر ، على مياه الفيضان وارتفاعها . فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً ، عم أراضى الحياض ولم تشرق الأرض . وإذا نقص عنها خيف الشرق على الأرض البعيدة والمرتفعة ، التى تعودت أن تسقى فى موسم الفيضان . ومن ثم خيف الجدب والقحط والغلاء . وإذا زاد عنها إلى ثمانية عشر ذراعاً ، خيف الغرق وخشى البوار ، وترقبوا انتشار الأوبئة .

فإذا عم الماء الأرض بفيضانه وغطاها ، ثم نقص وتراجع انكشفت الأرض ، ثم أخذت سبيلها إلى الجفاف فيزرعها الزراع وينتظرونها إلى وقت الحصاد .

وهذا الرى — هو رى الحياض — وهو الرى المتبع من قديم الزمان إلى العصر الحديث ، بما فى ذلك عصر المماليك . فكانت الأرض وزراعتها خاضعة فى جملة أرضها ، لمشيئة الفيضان ومقدرار زيادته وارتفاعه .

ولم تكن مصر تعرف إذ ذاك ، ما يسمى بالرى الصيفى أو المستديم . ذلك الرى الذى عرفته فى العصر الحديث ، والذى من أجله بنت السدود على النيل ، وماتزال تبنيها ، بل ومن أجله حولت فى أيامنا مجراه وبنت السد العالى . وذلك لتختزن جزءاً من مياهه ، تستفيد منها فى موسم النقصان ، وتستطيع بوجودها تنظيم دورات زراعية طوال العام .

وبدهى أن النهر العظيم ، قبل العصر الحديث ، لم يكن متكبراً ولا شحيحاً ، ولم يكن متأبياً على طالب الماء حينما يستسقيه ، ولم يكن ضنيناً على أرض مصر حينما تسترويه . ولم يكن مولعاً بحمل مائه إلى البحر ليحرمها إياه وإنما قصور المعرفة عن الحيل والوسائل التى بها ينتفع بمياهه على مدى أوسع ، كان السبب الأول فى هذا الضنّ والتأبى . وكانت الوسيلة الوحيدة ، انتظار ارتفاع الماء .

ورى الحياض بوساطة مياه الفيضان ، وحالة الأرض الزراعية فى أثناء ارتفاعه ، ثم بعد انخفاضه وتكشفها ثم زراعتها وحصادها تصوره رسالة عمرو بن العاص ، التى قيل إنه أرسلها إلى عمر بن الخطاب . ويقول فى نهايتها :

« فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذ هى عنبرة

سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء فتبارك الله الفعال لما يشاء » .

وقد أورد القلشقندى فى صبح الأعشى ، قول المسعودى ، وهو ترديد لقول عمرو بن العاص وشرح له ، قال :

«وصف الحكماء مصر ، فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء . وثلاثة أشهر مسكة سوداء . وثلاثة أشهر زمردة خضراء : وثلاثة أشهر سبيكة حمراء .

فاللؤلؤة البيضاء زمان النيل . والمسكة السوداء زمان نضوب الماء عن أرضها . والزمردة الخضراء زمان طلوع زرعها . والسبيكة الحمراء زمان هيج الزرع واكتهاله » .

مقياس النيل :

ومن أهم مظاهر اهتمامهم بالفيضان ومقدار ارتفاعه ، إقامة مقياس النيل والاعتماد عليه فى مراقبة هذا الارتفاع .

وقد تحدثنا من قبل عن بعض معلوماتهم التاريخية بشأن مقاييس النيل . أما المقياس الذى كان قائماً فى العصر المملوكى ، وكان عليه مدار العمل والمراقبة ، فهو مقياس الروضة الذى أتمه الخليفة المتوكل العباسى .

ووصف المقريزى هذا المقياس فقال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر

فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع . ما عدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى ، فإنها مفصله على ثمان وعشرين إصبعاً ، كل ذراع .والأذرع الأولى هي السفلى» .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرعه ما يلى — وقد ذكره المقريزى نقلا عن القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم ، ونقله السيوطى أيضاً :

«لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره :.وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال . فأجابه : « إنى وجدت ما تروى به مصر ، حتى يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعاً . والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ، وهما الظمأ والاستبحار ، اثنتا عشرة فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة » .

هذا والبلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور ، عند ما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، علياً رضى الله عنه ، فى ذلك فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياساً ، وأن ينقص ذراعين من اثنتى عشرة ، وأن يقر ما بعدها على الأصل . وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين . ففعل ذلك وبناه بحلوان . فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ؛ وزوال ما منه كان يخاف . بأن جعل الاثنتى عشرة ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون إصبعاً . فجعلها ثمانياً وعشرين ، من أولها إلى الاثنتى عشرة ذراعا . يكون مبلغ الزيادةعلى الاثنتى عشرة ثمانيا وأربعين إصبعا ، وهىالذراعان . وجعل الأربع عشرة ست عشرة ، والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين » .

هذا وقد روى القلقشندى قصة تغيير أذرع المقياس . وعقب عليها بقوله : قال القضاعى : « وفى هذا نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار وانتقاص الأحوال . وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية ، من أولها إلى آخرها أربعة وعشرون إصبعا كل ذراع بغير زيادة » .

وعلى كل ، فإنه يفهم مما ذكر أن التقسيم لم يكن ثابتا في كل عصر .

ونقل جلال الدين السيوطى فى كتابه « كوكب الروضة » عن ابن الوردى فى كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » وصفا للمقياس القائم حينذاك فقال :

«وقبالة الفسطاط ، الجزيرة المعروفة بالروضة ، وهى جزيرة يحيط بها بحر النيل من جميع جهاتها . وبها فرج ونزه ومقاصف وقصور ودور وبساتين . وتسمى هذه الجزيرة «دار المقياس» وكانت فى أيام بعض ملوك مصر ، يجتاز إليها على جسر من السفن فيه ثلاثون سفينة . وكان بها قلعة عظيمة تخربت .

وبها المقياس ، يحيط به أبنية دائرة على عمد . وفى وسطه فسقية عميقة ينزل إليها بدرج من الرخام دائرة . وفى وسطها عمود رخام قائم . وفيه رسوم أعداد الأذرع والأصابع ، يعبر إليها الماء من قناة عريضة » .

هذا وقد أشرنا إلى أن الأشرف قايتباى جدد هذا المقياس.

ومما يذكر أيضا ، أن الأشرف قانصوه الغورى ، بنى بجوار المقياس ، قصراً عظيما احتفل بافتتاحه عقب الاحتفال بعيد الوفاء وكسر السد ، وكان احتفاله به عظيما مطربا . وصار

يتردد عليه ويبيت فيه من آن إلى آن ، ولاسيما فى موسم الفيضان.

وقد وكّل بالمقياس من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار إذا حان موسم الفيضان ، ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين .

واشتهر طيلة عصر المماليك اسم «ابن أبى الردّاد» . وكان مختصا بمراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه . وإذا بدت معالم الزيادة فى أول موسم الفيضان ، ونبه المقياس على ذلك ، حمل ابن أبى الرداد البشارة بمناسيب الماء إلى الناس . وصعد بخبرها إلى السلطان . وهكذا دواليك خلال الموسم كله .

وأصل « ابن أبى الردّاد» هذا ، يرجع إلى الفقيه « عبدالله ابن عبد السلام بن أبى الرداد» المؤذن . وكان أصله من البصرة، فقدم إلى مصر وحدّث بها . فلما بنى الخليفة المتوكل العباسى ، مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين . فاختار القاضى بكّار بن قتيبة — قاضى مصر حينذاك — الفقيه عبد الله بن عبد السلام ابن أبى الردّاد المذكور ، لمراقبة المقياس ، وأجرى عليه الرزق .

وقد توفى هذا الفقيه عام ٢٦٦ هـ ، وبقى عمله وراثيا فى عقبه وذريته . فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر ، إلى أن انتهى عصر المماليك .

وكان للنداء بالزيادة أثر هام فى حياة الناس والدولة معا ، لاتصاله بإحدى نواحى حياتهم الحساسة ، وهى الناحية الاقتصادية أساس الأمن والخوف .

والمعتاد أن حد الوفاء ستة عشر ذراعا . وعندها يستحق الخراج — كما نوهنا — وإذا لم يبلغ الماء هذا الحد ، كان الشَّرَق . وإذا زاد على ثمانية عشر ذراعا ، كان الغَرَق .

ويقول الجلال السيوطى : « ومتى بلغ ستة عشر ذراعا استحق السلطان الخراج . وإذا بلغ ثمانية عشر ، قالوا : يحدث بمصر وباء عظيم . وإذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر » .

وكانوا يضبطون مواعيد الفيضان بالشهور القبطية — كما أشرنا — ويقع الوفاء عادة فى شهر مسرى ، فيحتفل السلطان أو من ينيبه عنه ، بعيد الوفاء وكسر سد الخليج ، ثانى يوم الوفاء .

مواعيد الزيادة وطريقة قياسها :

ويوضح القلقشندى مواعيد بدء الزيادة واطرادها وطريقة قياسها ، فيقول :

« إنه يبدأ بالزيادة فى الخامس من بئونة من شهور القبط . وفى ليلة الثانى عشر منه يوزن الطين ، ويعتبر به زيادة النيل بما أجرى الله تعالى العادة به ، بأن يوزن من الطين الجاف الذى

يعلوه ماء النيل زنة ستةعشر درهما على التحرير. ويرفع فى ورقة أو نحوها ، ويوضع فى صندوق أو غير ذلك . ثم يوزن عند طلوع الشمس . فمهما زاد اعتبرت زيادة كل حبة خروب بزيادة ذراع على الستة عشر درهما .

وفى السادس والعشرين منه يؤخذ قاع البحر ، وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تبنى عليها الزيادة .

وفى السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة ، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين إصبعاً ، إلى أن يكمل اثنتى عشرة ذراعا ، فيحسب كل ذراع أربعا وعشرين إصبعا . فإذا وفى ستة عشر ذراعا — وهو المعبر عنه بماء السلطان — كسر خليج القاهرة ، وهو يوم مشهود ، وموسم معدود ، ليس له نظير فى الدنيا . وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة ، وتسير بها البرُد ويكون وفاؤه فى الغالب فى مسرى من شهور القبط وفيه جُل زيادته . وفى النيروز — وهو أول يوم من توت — يكثر فى الخُلجان والترع عليه ، وربما اضطرب لذلك ثم عاد . وفى عيد الصليب — وهو السابع عشر من توت المذكور — يقطع عليه غالب بقية الترع .

وقد حكى القضاعى عن ابن عفير وغيره عن القبط المتقدمين

« أنه إذا كان المـاء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنى عشر ذراعا فهى سنة ماء . وإلا فالمـاء ناقص . وإذا تم المـاء ستة عشر ذراعا قبل النيروز ، فالمـاء يتم . ثم غالب وفائه يكون فى النصف الأول من مسرى . وربمـا وفى فى النصف الثانى منها . وقد يتأخر عن ذلك . وفى الثامن من بابة يكون نهاية زيادته» .

الإعلان بالزيادة :

ويوضح القلقشندى أيضا جانبا من طريقة إعلانهم بزيادة النيل . فيقول :

« وقد جرت عادة صاحب المقياس أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة فى كل يوم وقت العصر . ثم ينادى عليه من الغد بتلك الزيادة أصابعَ من غير تصريح بذَرْع . إلا أنه يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، كأرباب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش والمحتسب ، ومن فى معناهم فيذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع . والبعاد بينهما بزيادة أو نقص . ولا يُطْلع على ذلك عوام الناس ورعاعهم . فإذا وفّى ستة عشر ذراعا ، صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد

من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد » .

الاحتفال بالوفاء وكسر سد الخليج :

وكان الاحتفال بوفاء النيل تقليداً من تقاليد الدولة ، ورثته عن أسلافها . وكان عُرفاً شعبياً تعودته الجماهير من قديم الزمان. وتختلف أبهته وعظمته باختلاف الأيام والظروف والشخصيات المحتفلة . ومع هذا لم يبلغ ما بلغه فى العصر الفاطمى .

ويعتبر تخليق عمود المقياس وكسر سد الخليج الكبير إعلانا عملياً بالوفاء والاحتفال به .

ويشترك السلطان بنفسه الاحتفال . كما فعل برقوق عام ٨٠٠ هـ والمؤيد شيخ عام ٨١٦ هـ ، وخُشْقَدَم عام ٨٧٠ هـ والغورى عام ٩١٧ هـ . وكثيراً ما كان السلطان ينيب عنه نائب السلطنة أو أتابكى الجند — القائد العام — أو يندب أحد كبار أمرائه كالأستاد أو الدوادار .

ويقع الاحتفال عادة نهاراً لا ليلا . وفى عام ٩٠٣ هـ رأس الاحتفال السلطان الناصر بن قايتباى ليلا ، ولعلها المرة الوحيدة فى ذلك . ويجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أو مندوبه ، سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة ، ملأى برجال الدولة والجند

تسير بهم إلى المقياس بالروضة . فيشاهدون الماء عنده ؛ ويرون مدى ارتفاعه . ويخلقون المقياس . أى يطلونه بالخَلوق . وهو نوع من الطيب . ويدورون إلى موضع السد ؛ وهو قائم فى فم الخليج . فيكسره العمال فتتدفق مياه النيل فى الخليج . ويقع ذلك عادة ؛ ثانى أيام الوفاء .

ثم يأكلون ويشربون ؛ ويلهون أو يسمرون مدة ؛ ثم يعودون . ويخلع السلطان الخلع ويهدى الهدايا . ومن بينها ما يهديه إلى ابن أبى الرداد ؛ المبشر بالزيادة والوفاء .

ثم يلى ذلك كسر سدود أخرى ؛ وفتح خلجان أخرى من خلجان القاهرة وسدودها .

وفى مناسبات الفيضان والاحتفال بالوفاء ؛ قد ينظم الشعراء والزجالون ؛ المقطوعات أوالقصائد ؛ يضمنونها ماتوحى به هذه الأيام السعيدة الحافلة ؛ من جميل الخواطر ونبيل المشاعر . وقد يخرج الناس فى سفن نيلية يرتادون بها خلجان مصر ؛ أو يتجمهرون على جانبيها ؛ طلباً للمتعة واللهو والتفرج والعبث .

كذلك تكتب « البشارات » النثرية ؛ ويصدرها ديوان الإنشاء بعبارات مسجوعة منغومة ؛ وتصويرات أدبية شاعرة ؛ وتبعث إلى النواحى لتقرأ فيها إعلاناً بالفيضان والوفاء ؛ وإشعاراً

باستحقاق الخراج . وسنفصل لك الحديث عن هذه البشارات ؛ فى سطور قادمة .

وفى بعض السنين قد يأمر السلطان بقراءة القرآن الكريم فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس ؛ ويأمر قضاة الشرع بالمبيت هناك ؛ وكذلك قراء المدينة ووعاظها .

وإذا لم يف النيل فى ميعاده ؛ فقد يصدر السلطان أمره ؛ فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ؛ أو قراءة القرآن والحديث، دعاء لله أن يتفضل عليهم بالوفاء ؛ واستشفاعا إليه لإجراء الماء كما وقع عام ٨٦٦ .

وكما يستسقون طلباً للزيادة ؛ يستسقون طلباً للهبوط ؛ إذا طغى الفيضان وخيف منه الغرق؛ وخشى الضرر كما وقع عام ٧٦١هـ.

ومما يذكر أ ه فى عام ٨٦٦هـ عند ما لم يف النيل فى ميعاده وضج الناس وافتضح خوفهم ؛ وارتفعت أثمان الغلات والبضائع، همَّ السلطان الظاهر خشقدم — السلطان إذ ذاك — بهدم المقياس ؛ حتى لا يستطيع الناس معرفة مقدار الزيادة أو النقص فثبطه عن ذلك شيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى . وخرج الناس للاستسقاء ؛ كما نوهنا .

ومما يذكر كذلك أنه كان يجبى من قبل ؛ من أهل مصر

عند وفاء النيل ؛ ثمن الحلوى والفاكهة والشواء التى يمد بها السماط بجوار المقياس يوم الوفاء . فأبطل السلطان المنصور قلاوون ذلك ؛ وجعل نفقات السماط من بيت المال .

من أخبار الفيضان والاحتفال بعيد الوفاء :

ولم تكد كتب التاريخ التى أرخت لهذا العصر ، وكتبها مؤرخو مصر الذين عاشوا فيه ، تغفل عاماً ، لم تذكر فيه خبراً ما عن الفيضان والاحتفال بعيد وفاء النيل . أو تذكر مدى زيادته أو نقصه ؛ وما اتصل بذلك من شَرَق أو غرق أو غلاء أو غيره .

وفى السطور التالية نسجل لك جملة ملخَّصة مختارة من أخبارها فى بعض الأعوام . تختلف فيها بعض الأحداث والوقائع اختلافاً ما ؛ تشعرك بما كان هناك من اهتمام بأمر النيل ؛ ومن عادات وتقاليد واتجاهات ؛ عند فيضانه أو نقصانه أو طغيانه . سواء فى ذلك ما يتصل برجال الدولة أو طبقات الشعب . فمن ذلك نقلا عن بدائع الزهور لابن إياس ؛ وعن غيره :

١ — فى عام ٦٩٤ هـ وَفَى النيل فى اليوم السادس من أيام النسىء . وبلغ ارتفاعه ١٦ ذراعا و١٧ إصبعا . ثم هبط . فوقع

الغلاء وندر وجود القمح . وبلغ سعر الإردب ثمانية مثاقيل ونصفاً من الذهب .

٢ — وفي عام ٦٩٥ هـ في عهد العادل كتبغا المنصوري ؛ شح النيل ووصل اثنتي عشرة ذراعاً؛ ثم هبط فشرقت الأراضي وزاد الغلاء ؛ وتعذر العيش على الناس ؛ حتى أكلوا الكلاب والقطط وسائر الدواب . واستشرى الموت ؛ ثم خفت الوطأة بعد قليل .

٣ — وفي عام ٧١٧ هـ كتب النويري في نهاية الأرب تحت عنوان « ذكر خبر النيل المبارك في هذه السنة » ما نصه : « وإنما خصصنا هذه السنة بذكره ؛ لأنه وقع فيه من الغرائب في أمره ؛ ما لم يجر بمثله عادة . وذلك أن النيل المبارك وفي بمقياس مصر في يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى الموافق لتاسع عشرين أبيب ؛ ستة عشر ذراعا . وحصل التخليق وكسرت الخُلُج هذا اليوم . وما وقع مثل ذلك في هذا العصر . فإن العادة في غالب السنين أن يكون الوفاء في الآخر من مسرى ؛ وفي الأوسط منه . وربما تأخر عن ذلك ؛ فيكون في أيام النسيء وأوائل توت . ثم وقف بعد ذلك وأخذ في النقص والزيادة . فكانت زيادته إلى آخر مسرى ذراعاً واحداً . ثم وقف مدة وزاد أخرى . فبلغت زيادته إلى آخر يوم الثلاثاء الثامن

والعشرين من جمادى الآخرة الموافق لتاسع توت سبعة عشر ذراعاً وتسعة أصابع . وزاد فى يوم الأربعاء عاشر توت خمسة أصابع. وفى بكرة الخميس الذى يليه تسعة أصابع. وفى يوم الجمعة اثنى عشر من توت ، خمسة أصابع وفى يومى السبت والأحد أربعة أصابع؛ فى كل يوم أصبعين . فكملت زيادته بمقياس مصر ثمانية عشر ذراعاً وستة أصابع . ولما غلّق الذراع الثامن عشر غرّق كثيراً من الأدر المجاورة له بساحل مصر والروضة . وغرق الأقصاب والبساتين،وقطع الطريق فيما بين القاهرة ومصر فى عدة مواضع . فأمر السلطان بقطع الخلجان التى عادتها تكسر فى عيد الصليب؛ مثل أبى الرجاء والكينونة وغيرها . وذلك قبل الوقت المعتاد . والعادة جارية أن هذه الخلجان إذا قطعت ينقص بحر النيل بسبب قطعها نحو ثلثى ذراع ؛ لما ينصب فيها منه. فلم يضطرب النيل لقطعها ولا توقف ؛ بل زاد ماذكرناه . ولعله لو لم تقطع هذه الخلجان العظيمة ؛ كان بلغ فى الزيادة إلى أكثر ما انتهى إليه وعم فساده . ثم ثبت النيل بعد ذلك على البلاد ثبوتا حسناً إلى حد الاستغناء عنه . فأخذ فى النقص . فكان ينقص قليلا ثم يثبت . ثم ينقص حتى أخذت الأرض حاجتها من الرى . وهبط والحمد لله » .

٤ — وفى سنة ٨١٨ هـ كان الملكُ المؤيدُ شيخ المحمودى

شديد الاهتمام بعيد وفاء النيل . وكان يتباهى فى يوم كسر سده. وقد ألزم الأمراء المقدّمين — كبار الأمراء — بأن يتخذ كل منهم لنفسه «حُراقة» — سفينة — يزينها وينصب فيها «الصناجق والكئوسات» الرايات والموسيقى .

فإذا وفى النيل تُعد له «الذهبية» فى بولاق؛ ليركبها إلى المقياس. وفى السنة المذكورة نزل إلى المقياس وخلق عموده وكسر السد . والأمراء المقدمون راكبون من حوله فى «حراريقهم» المزدانة . وقد سد البحر من كثرة المراكب من حولهم . وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك ما كان يصنعه أستاذه برقوق .

٥ — وفى سنة ٨٢١ هـ لم يف النيل فى ميعاده . فزاد الغلاء فنزل الملك — المؤيد شيخ — سعياً للاستسقاء . ولبس جبة من الصوف الأبيض ؛ وعلى رأسه عمامة صغيرة جداً بعذبة مرخاة خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرساً بغير «قماش» حريرى ولا سرج ذهبي . واتجه إلى جهة المقياس ؛ وذبح هناك بيده أغناماً وأبقاراً كثيرة ؛ وفرقها على الفقراء والمحتاجين . كما فرق عليهم فى يومه هذا نحواً من ثلاثين ألف رغيف . وصلى على الرمل من غير سجادة تواضعاً لله تعالى . فزاد النيل ووفى فى أواخر شهر توت .

إلا أن النيل عاد فهبط بسرعة بعد ذلك . وشرق كثير من الأراضى واستمر الغلاء . وعزت الأقوات سنة كاملة .

وقد حكى السيوطى مثل هذه الرواية ؛ على أنها وقعت عام ٨٢٣ هـ ؛ وروى أن شيخ الإسلام الجلال البلقينى قال للمؤيد : « بتواضعك ترحم » .

٥ — وفى سنة ٨٥٣ هـ ، وقف النيل عن الزيادة والوفاء . فرسم السلطان — جقمق العلائى — أن يخرج الناس للاستسقاء. فخرجوا رجالا ونساء وصبيانا. وخرج العلماء والصلحاء وأعيان الناس. وخرج القضاة الأربعة ، ومعهم أمير المؤمنين — المستكفى بالله سليمان — ولم يصحبهم السلطان ، فتألم الناس لذلك . وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف. وخرج النصارى وعلى رءوسهم الإنجيل . وخرج اليهود وعلى رءوسهم التوراة . ومعهم جميعا الأبقار والأغنام . وهم يقولون : « ياألله ارحمنا » .

ويمموا شطر الصحراء عند الجبل الأحمر ، ونصبوا منبرا صعد عليه قاضى الشافعية شرف الدين يحى المناوى فخطب خطبة الاستسقاء . وأراد أن يحول رداءه ، فسقط الرداء منه إلى الأرض فتطير الناس من ذلك .

فلما رجعوا من الاستسقاء، طلع ابن أبى الرداد — المبشر بالفيضان — ومعه رايات زعفران . وبشر بأن النيل قد زاد إصبعا . ففرح الناس بذلك ، وأنعم السلطان عليه بمائة دينار .

ثم إن النيل نقص بعد ، فى تلك الليلة إصبعين . وكان قد بقى على حد الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد ، فكسر . فلم يجر الماء فى الخليج إلاقليلا . وأخذ النيل فى النقص بعد ذلك ، فأجدبت الأرض ؛ وزاد الغلاء ؛ وماتت الدواب .

٦ — وفى سنة ٨٦٦ هـ لم تبد زيادة النيل إلا قليلا ؛ فى شهر أبيب . ثم توقفت مدة ؛ فضج الناس وزاد خوفهم حذرا من الشرق . وارتفعت الأثمان . لذلك رسم السلطان — خشقدم — للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ؛ ويبيتوا هناك ؛ ويتلوا القرآن والحديث الشريف ؛ ثم يدعوا الله لزيادة النيل .

فأقاموا فى المقياس أياما ؛ ورجعوا دون أن يزيد النيل . فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى —وكان من أكبر علماء زمانه — يستفتيه فى ذلك . فرد عليه الشيخ أن اجمعوا كل بنى العباس — يعنى أسرة الخليفة — رجالهم ونساءهم ؛ كبارهم وصغارهم . ثم ضعوا فى أفواههم شيئا من الماء

يمجونه فى إناء ؛ ثم صبوه فى فسقية المقياس . — ففعلوا ذلك فكان فيه البركة وزاد النيل ...

وقيل إن القاضى علم الدين صالح البلقينى ذهب إلى المقياس ؛ وأقام ثلاثة أيام هناك. وفى اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع ، ففرح الناس بذلك . ورجع القاضى علم الدين شاقا من القاهرة وأمامه الأعلام وحوله الهتاف وضجيج الفرح .

ثم وفى النيل وثبت مدة طويلة فى زيادته . وأناب السلطان الأمير قانم التاجر ؛ فى الاحتفال بالوفاء وكسر السد .

٧ — وفى سنة ٩٠٢ هـ كان السلطان هو الناصر بن قايتباى. وكانت القاهرة تموج بفتنها . والأمير أقبردى الدوادار متغلبا عليها . وبلغ النيل حد الوفاء فى ٢٧ مسرى . ففاتح الناس الأمير أقبردى فى أن يكسر السد ؛ فأناب عنه والى القاهرة فى ذلك . فلما ذهب وجد أن الشيخ عبد القادر الدشطوطى — أحد الصوفية — فتح جزءا منه . فأجهز هو على البقية ؛ دون أن يبدو على الاحتفال روعة ولا بهجة . ولم يخرج الناس للمشاهدة والتفرج لانتشار الفتن .

٨ — وفى سنة ٩١٧ هـ ننقل إليك مؤدى ماسجله المؤرخ الكبير ابن إياس الحنفى ؛ فى أنباء السنة المذكورة بنصه . وفيما ذكره

ما يعين على حسن تصور مقدار اهتمام الدولة والشعب بالنيل وأعـــياده حينذاك ؛ وتصور بعض تقاليدهم ومشاعرهم فى ذلك ، قال :

« فى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى ؛ كان النيل قد توقف عن الزيادة ؛ بعد ما كان أشرف على الوفاء . فرسم السلطان — الغورى — لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجها ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة . فتوجها إلى الروضة — أنسباى حاجب الحجاب ووالى القاهرة — فلم يشوشوا على أحد من المتفرجين . ونادوا بالأمان والاطمئنان ؛ وأن أحدا لا يجاهر بالمعاصى . وخرقوا بعض الخيام ؛ وكان يوما مهولا .

وسبب ذلك أن النيل كان قد أشرف على الوفاء ؛ وبقى عليه إلى حد الوفاء خمس أصابع . فزاد فى تلك الليلة أصبعين وتأخر عن الوفاء ثلاث أصابع . ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر عن الوفاء يومئذ إصبعا واحدا .

وقد ضج الناس لتأخر الوفاء . وأشيع بينهم أن الروضة كثر فيها الفسق والمعاصى .

فعند ذلك رسم السلطان لحاجب الحجاب والوالى بكبس

الروضة . فتوجها إليها وكبسوا الناس فى داخل خيامهم ؛ ولم يفحشوا كل الإفحاش فى ذلك .

وكان السلطان قبل ذلك توجه إلى المقياس ؛ وصلى هناك ودعا إلى الله تعالى بالوفاء .

ثم إنه رسم للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا به . وقرأوا هناك ختمة . ومد السلطان أسمطة حافلة . واجتمع هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغيرهم من مشاهير الناس .

ثم فى يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ؛ نزل السلطان إلى المقياس . فقدموا إليه « الحراقة » المعدة لكسر السد . فنزل بها واتجه نحو المقياس . وطلع إلى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس . فأقام هناك إلى بعد الظهر ؛ ومد هناك مدة حافلة .

ثم نزل من المقياس فى «الحُراقة» ؛ وشق من بر الروضة؛ فارتفعت الأصوات له بالدعاء . وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت . ولا سيما أن الليلة كانت ليلة وفاء النيل . وكانت الروضة فى غاية البهجة وهى محتبكة الخيام . فكان له يوم مشهود.

واستمر السلطان شاقا فى البحر حتى طلع من عند قصر ابن العينى . فركب متجها إلى القلعة .

وأوفى النيل فى تلك الليلة . وكسر فى يوم الجمعة ١٣ جمادى الأولى الموافق ١٥ مسرى .

وقد استبشر الناس بنزول السلطان إلى المقياس ؛ وبوفاء النيل فى تلك الليلة بقدومه إلى المقياس .

وقد قيل :

مولاى إن النيل لما زرته حياك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرخى عليه الستر لما جئته خجلا ومد تضرعا بالأذرع

وأوفى النيل فى تلك الليلة ؛ وزاد عن حد الوفاء أصبعين .

وكان مع السلطان ؛ لما نزل إلى المقياس : الأتابكى سودون العجمى ؛ والأمير أركماس أمير المجلس ؛ والأمير طومان باى الدوادار الكبيرة وغيرهم من الأمراء المقدمين والعشرات .

فلما وفى النيل ؛ علقوا الستر فى شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ثم رسم السلطان للأتابكى «سودون العجمى» بأن يتوجه ويفتح السد على العادة .

فنزل الأتابكى « سودون » فى « الحراقة » ؛ وأتى إلى المقياس وخلق العمود . ثم اتجه إلى فتح السد ؛ فكسر على مشهد منه . وكان له يوم مشهود .

وهذه أول مرة يفتح فيها السد بعد ترقيته إلى الأتابكية .

وقد أظهر فى ذلك اليوم أنواعا من العظمة . ولكنه لم يصل إلى من تقدمه من الأتابكة .

فلما فتح السد ، قدموا له فرسا بسرج من الذهب وكنبوش ثم طلع إلى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة ثمينة ، على العادة .

وقد سر الناس قاطبة بوفاء النيل ، بعد ما قد أخذ فى الانكسار وتشحطت الغلال . فجاء الفرج من عند الله تعالى . فكان كما قيل :

إن بحر النيل قد وفى لنا ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين إلا أنه حين وفى ما عليه انكسرا

٩ — وفى سنة ٩٢٢ هـ . أخذ النيل فى الزيادة منذ أواخر صفر — فى شهر برمهات — قيل إن سبب هذه الزيادة المبكرة ، سقوط أمطار غزيرة بأعلى الصعيد ، فانحدرت سيولها إلى النيل.

ثم اطردت الزيادة — وكان السلطان الغورى قد خرج إلى الشام لملاقاة العثمانيين — وبلغت اثنتى عشرة ذراعا ، فى غير أوانها . وخشى الناس اطرادها بهذه الصورة ، فتغرق البلاد ، وظنوا الظنون .

ثم إن النيل بلغ حد الوفاء ، قبل مسرى باربعة أيام ،

وفرح الناس بهذا الوفاء المبكر ، ونظموا الأزجال بهذه المناسبة وتغنوا به . واحتفل الأمير طومان باى — نائب الغيبة — بفتح السد . فركب « الحراقة » واتجه إلى المقياس ، وخلق عموده — طلاه بالخلوق أى الطيب — وكان فى صحبته عدد كبير من كبار الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .

وكانت هذه آخر مرة يحتفل فيها المصريون ، بفتح السد ووفاء النيل فى عصر المماليك .



النيل في نثرهم الفني

وكان من بين دواوين الدولة ؛ ديوان الإنشاء . وعنه تصدر الرسائل السلطانية والمكاتبات الهامة . ولم يكن يليه إلا كبار الأدباء والمنشئين ؛ من أولى العلم والمعرفة . وكانوا يدبجون الرسائل — غالباً — بأساليب أدبية ؛ فيها تفصيل وإسهاب ؛ والتزام لقواعد الكتابة الفنية المرعية آنذاك .

ومن بين هذه الرسائل : « البشارات » وهى من أطرفها . ويتاح للكاتب فيها ؛ فسح من الوصف والمبالغة كثيرة . يسرح فيها خياله ويمرح ؛ حتى يقع الخاطر على ما يروق من جميل الصور وبديع التعبير .

ويكتبون « البشارات » فى مناسبات كثيرة . ومن أحب مناسباتها فيضان النيل ووفاؤه وكسر خليجه . وما يصاحب ذلك من ملابسات .

وفيها يعلنون الناس بوفاء النيل؛ ويفيضون فى وصف بركاته ويمنه ؛ ويشيدون بطيب أيامه وزمانه . وينوهون بما تفيد البلاد منه ومن مائه ؛ من خصب وينع ؛ ونبات وزع . ويصفون مجراه

وتياره ؛ وماءه ووفاءه وعكره وطينه ؛ وشواطئه وجسوره ؛ وآثاره ومفاتنه ؛ ومرائيه ومحاسنه ؛ واتصاله بالنبات والزهر والشجر على جانبيه ؛ وإحاطته بالجزر بكلتا يديه ؛ إلى غير ذلك .

ويبدو لك بوضوح فى هذه البشارات — بشارات النيل — مبلغ شغف منشئيها بنيل بلادهم العظيم ؛ ومدى اتصالهم الروحى بنهرهم المبارك ؛ وكبير محبتهم له وعظيم تقديسهم ؛ وعميق امتزاجهم به مشاعر وخواطر ؛ ودقة ملاحظاتهم لدقائق محاسنه ومناظره ، ومبتكرات معانيهم التى هى من صنع وحيه ؛ ومن إلهام تحركه وجريه ؛ ولونه وصوته وصلاته . مع تعليلاتهم الأدبية الطريفة السائغة .

على أن كتابة « بشارات النيل » لم يكن أمرها مقصوراً على « الرسميات ؛ وعلى صدورها من الديوان . بل كان بعض المنشئين خارج ديوان الإنشاء ؛ يكتبونها فى مناسبة وفاء النيل ؛ تقليداً لما يكتب فى الديوان ؛ أو معارضة لإحدى رسائل البشارات التى سبقت كتابتها فى مناسبة الوفاء .

وعلى هذا ترى أن « بشارات النيل » كانت غرضاً هاما مطروقا ؛ من أغراض النثر الفنى فى عصر المماليك .

ولا نشك فى أن عدداً كبيراً من منشئى العصر كتبوا بشارات

الوفاء ؛ وأن كثيراً من هذه البشارات قد فقد مع ما فقد من آثار العصر الأدبية فى الشعر والنثر .

على أن القليل الذى بقى منها ؛ ما هو إلا وثائق محبة ؛ وصفحات تقديس ؛ وآيات أدبية قيمة ؛ ودلالات عظيمة تشهد لأهل العصر بنبيل شعورهم بنهرهم العظيم ؛ وبجليل شكرهم له على ما أسدى من فضل ؛ وقدم من يد ؛ وأوصل من نعمة .

وننبه هنا إلى أنه إذا بدت لنا فى هذه النصوص أصباغ بديعية كثيرة ، وألوان عدة من ألوان الصناعة ، وكنا ممن ينفرون من البديع وأصباغه وصناعته ، ينبغى ألا نقف عندها جامدين نعدد المساوىء — مساوىء البديع الذى تنفر منه — ونغفل عما فى هذه البشارات من رقيق العاطفة وعميق الإدراك ونبيل التصور وجميل التصوير .

هذا ولم تكن بشارات النيل وحدها ، هى اللون الوحيد بين ألوان النثر الفنى ، التى تناولت الحديث عن النيل ووصفه ووصف فيضانه ، وما يتصل بذلك . بل كان وصف النيل ووصف ما يتصل به ، موضوعاً مشتركا بين عدد من ألوان النثر الفنى. لقد كتبوا فى ذلك الرسائل والمقامات والمفاخرات والألغاز

وتحدثوا عن النيل فى نقصانه وفى طغيانه . وأحاطوا وصفاً بكل مظاهره ومآثره .

وهذا يدلنا على سعة اهتمام الأدباء من كرام المنشئين ، بالنيل ومحاسنه . ومدى ما شغل من نفوسهم وأفكارهم .

ونعرض فيما يلى نصوصاً يتجلى لك فيهما ما ذكرناه . مما كتبه منشئو هذا العصر !



بشارة

لمحي الدين بن عبد الظاهر

كتبها عن الملك المنصور قلاوون إلى نائب حلب

أدام الله نعمة المجلس . ولا برحت التهانى إلى ربعه مزفوفة . والأمانى بالنجاح إلى صقعه محفوفة .
والبشائر يهدى إليه منها ما لا يستبعد بيداء ولا يستهول تنوفة .
والأقاليم تستدنى منها كل ما تغدو له عين الرياض محدقة ، وعين الكمال مطروفة .

هذه المكاتبة إليه تثنى على مبراته التى لا تبرح إلى السداد مصروفة . ولا تنفك محامدها على ما يجريه الله من الخيرات موقوفة . وتفهم بشرى يُرى بشرها فى أسارير وجوه الغمائم . ونشرها فى صفحات النسيم وأعطاف الكمائم .

وذاك ماهيأ الله من زيادة النيل الحسنة التصريف . والضيف الذى يزور البلاد المصرية فى كل سنة ولكنه يؤثر التخفيف . ويأتى ووجهها مغبر ، ونبتها مصفر ، وساكنها مضطر . فما يزول إلا وثغرها مفتر . وضرعها قد در . وبرها قد بر . وقسم الخصب لها قد أبر . ورخاؤها قد كرّ . وجدبها قد فرّ .

ولما كان يوم . . . . . . تكامل وفاؤه ستة عشر ذراعا

فاتينا المقياس فضمخنا أركانه . وعطرنا مكانه . وقلنا لعموده أهلا وسهلا بعمود الصباح . وبشير الأرواح . وديوان الفِلاحة والفلاح . والذى هو حقيق بأن يوصف بـِ :

دانٍ مسفٌ فُوَيْقَ الأرضِ هيدَبُهُ
يكادُ يمسِكُهُ مَنْ قام بالراحِ

وعدلنا إلى الخليج ، فإذا عليه أمة من الناس يستسقون بل يستشفون . وأمم كأنهم جان ولكنهم لا يستخفون . ورجعنا وقد طاف بنا من الحراريق ذوات أجنحة . وربات خواف وقوادم مترنحة . فاستقبلناهم فقالوا : جاء الخير . وشاهدناهم فقالوا : هذا سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير . فأمرنا بالخليج فتلقف ثعبانه ما صنعوا . ووصل ما قطعوا . وفرّق من التراب ما جمعوا .

وانقضى هذا اليوم وبشائره قد ملأت اربى والوهاد . وهمت وهامت فى كل واد . فيبشر بذلك كل مستسقى سحاب ومستنزله . وكل تال كتاب ومرتله . وكل مرهف سيف ومجرد منصله . وكل حالب ضرع . وكل طالب حرث وزرع . وكل ذى إبل وشاء . وكل ذى ثغاء ورغاء . وكل ذى صرير وصليل . وكل ذى تموين وتمويل . وكل ذى تعويض وتعويل .

فإن الجار للجار يفرح . وإذا أصبح هذا بخير ، فليسأل الله ذاك أن يصبح كما أصبح .

والله يجعل دولتنا بالخصب والنماء تفخر . ويضع البركة حيث يحصل اليأس ، حتى لا يغدو بعض الممالك من بعض يسخر » .

هذا . وترى الكاتب :

قد بدأ بشارته بتحية المرسل إليه داعياً له ، مصطنعاً فى ذلك ألفاظاً منتزعة من البشارة ومعانيها وملائماتها من أمثال : النعمة والتهانى ومزفوفة والأمانى والنجاح والبشائر .

وأنه ذكر بعد ذلك ، موضوع المكاتبة ، وهو أنها تبشره بما هيأه الله من زيادة النيل .

وأنه صور حال البلاد قبل مجىء الزيادة وتمام الوفاء ، وصور حالها بعد ذلك . فأحصى نعما عدة وفوائد جلى تستفيدها البلاد ، ومنها : انتشار الخصب ووفور الرخاء ، وانقطاع الجدب والغلاء.

وأنه سجل القيام بتخليق عمود المقياس وكسر سد الخليج.

وأنه أشار إلى ما كان فى الحفل من اجتماع الخلق للمشاهدة والتفرج مستبشرين بفرحة الوفاء .

وأنه بشر بالوفاء كل محتاج بقضاء حاجته سواء أكان زارعاً أم أديباً أو جنديا أو ممولا أو دائناً أو مديناً أو غير ذلك من ضروب الناس .

وأنه أحسن فى نقل كثير من الصور التى لا بست موضوع المكاتبة . ومن ذلك وصفه لمصر قبل مجئ الفيضان : فالوجه مغبر . والنبت مصفر . والساكن مضطر . وهى كنايات عن انتشار القلق والجدب والحاجة . ثم وصفه لها بعد مجئ الفيضان وتمام الوفاء : فالثغر مفتر . والضرع قد در . والبر قد بر . والخصب قد أبر . والرخاء كر . والجدب فر . وهى كنايات عن الفرح والرضا والطمأنينة ، وانتشار الخير وتوافر الغلة وانقضاء الخوف وانقطاع الغلاء .

وأنه دعا للدولة فى الختام دعوة مناسبة للمقام ، وهو توافر الخصب والنماء ليتسنى لها الفخر على سواها .

وبهذا كله ترى الكاتب قد أكمل عناصر المكاتبة ، من التحية والدعاء وبيان الموضوع وتسجيل الملابسات ونتيجة الوفاء ثم الختام .

وتراه أيضاً قد عاش فى جو هذه البشارة من أول المكاتبة إلى آخرها . عاش بعاطفته وتفكيره ، وبخياله وتصويره ، وبلفظه وتعبيره .

رسالة

للشاعر الكاتب جمال الدين بن نباتة

وهذا أديب مصر الكبير وشاعرها القدير فى زمانه ، جمال الدين بن نباتة المصرى ، يشرع قلمه ويرهف شباته ، ليوفى نيل بلاده حقه من الحديث والوصف .

وكان النيل فى إحدى السنين ، قد زاد عن حد الوفاء . فانبرى ابن نباتة ليصف فيضانه وزيادته وطغيانه ، فوصفه فى رفق وهوادة ، وانساب مع شعوره حتى غدت سطوره خطرات متبتل فى محراب النيل ، أو كلمات عاشق يرتلها فى أذن خليل . أو هى — فى الحق — قصيدة غزلية نثرت أبياتها ، ونجوى شاعر رقت همساتها . ومدحة رجل طروب يرى فى ممدوحه المثل الأعلى . فلا ينى يكرر له الحمد والمدح . وينسب إليه كل صفات الكمال الإنسانى . وكأنه تصور النيل ملكا عظيما أو إنساناً كريماً ، أغرق فى محبته وأطال فى صحبته . وخبره فوجده حسنا فى كل شىء ، وشهما شجاعا وفياً فى وعده ووعيده ، وفى إطماعه وتهديده . وله من الأسد هصره ، ومن العظيم خيلاؤه ، ومن المستبد جبروته ، ومن المحسن الكريم بذله وعطاؤه .

وهذا وذاك يشعرك بان الكاتب امتزج بموصوفه وأوصافه امتزاجا عميقا . فاقتدر بذلك على أن يفصح عن خبيئته ومعروفه ، وآبده ومألوفه ، ونَفْسِيَّهِ وحِسِّيِّه .

يقول ابن نباتة :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض ، فثبتت فيها قدمه . وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل ، فقتل الإقليم ، وهذا الاحمرار إنما هو دمه . .

حمرتها من دماء ما قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه . ولا وهدا بل جبلا إلا أخفاه . أقبل كالأسد المصور إذا احتد واضطرم . وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم . وعامل البلاد بالخيلاء ، وكيف لا وهو سلطان جائر أيد بالنصر . قائلا : إن كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فأنا أقتص بأن أرمى فى بروق تيارى بشرر كالقصر .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل . وممعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد ، كما قال جميل . وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر ، بخلاف المشهور عن صبغة النيل . وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة . وكمنازل

الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة . ومنحناه ولاء وثناء ، هذا يدور مع الإخلاص بفلك ، وهذا يعذب من البحار بنقطة . وكم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى . وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى . فهو جواد قد خلع الرّسَن . ساهر فى مصالح الخلق ، وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوَسَن . جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه ، بين الماء والخضرة والوجه الحسن . كم بات ستر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين . وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . وبلَغ وبلّغ بخرير تياره سلامه . وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامة .

وخُلّقَ صدر العمود ، وكيف لا يُخلَّق بشير العباد والبلاد . ودعا مصر لأخذ زخرفها ، فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العماد . وبسط يده ببركة الماء ، فقيل : سلام لك من أصحاب اليمين . وخضّب بنانه وأقسم بحصول الخير ، فعقد لمخضوب البنان يمين . وأشار إلى وصول المد المتتابع . وقبض يده المخلقة على الماء ، فوفت وماخانت فروج الأصابع . ونادى زائد الوفاء ولكن كم حياة فى الأرض لمن ينادى . ولمت أصابع الزيادة ونمت ، حتى قال الناس : ماذى أصابع ذى أيادى .

هذا وقد قربت زرابى الدور المبثوثة بالنمارق . وقال المقياس : تغطت منا الدرج ، فقال الرجاء وظهرت الدقائق . فهو عم المنافع ، عذب المنابع ، يشار فى الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود . وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن نرد الحوض المورود . وكفى أهل مصر هذه المصيبة التى إذا أصابتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . ولا ابتلاهم بما ابتلى به قوما وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، فإنما يستغشى ثيابه منهم الفقراء فى المطر ، ويجعل أصابعه منهم فى آذانه المؤذنون .

اللهم إنك ولى النعمة . وأولى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة » .

مقامة

للكاتب والشاعر الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي
في وصف زيادة النيل وطغيانه عام ٧٧٣ هـ

وقد زاد النيل وطغى كذلك، عام ٧٧٣ هـ . وقاست البلاد من جرائه أضرارا كثيرة . وقد سن شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي أحد أدباء ذلك الزمان، شباة قلمه ودبج هذه المقامة وسماها «المقامة الزعفرانية» . في وصف هذه الزيادة والطغيان .

وقد جرى فيها على أسلوب القص والحوار، المعروف في القصص والمقامات . وبذلك زايل سمت الكاتبين السابقين في رسالتيهما، أعني ابن نباتة وابن عبد الظاهر . والمقامة فن آخر غير فن الرسالة .

قال ابن أبي حجلة :

« عن أبي الرياش ... قلت : ما وراءك ياعصام . فقد بلغنا أن النيل تزايد دفعه . وأدى إلى الضرر نفعه . »

فقال : « خذ العفو . ولا تكدر بذكر النيل الصفو فقد امتزج بالمعصرات ثجاجه . وأعيا طبيب الغيطان علاجه .

وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

قلت : « فما فعل النفير بجزيرة الطير » ؟

قال : « لم يبق بها هاتف يبشر بالصياح . ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح . إلا اتخذ نفقا فى الأرض أوسلما فى السماء . أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء . فأفاق الحِمامُ حَمام فى البروج . وترك أرضها كسماء مالها من فروج . وتلا على الحمام : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج . وكم فى سمائها من نسر واقع . وبومة تصفر على ديارها البلاقع . ومنهل فى الغراب ميت . سقيت منه القوم وسقيت » .

قلت : « فبمصرنا أزَحفَ عليها بعسكره الجرار . ونقط مائه الطيار ؟ قلت : فالجيزة » ؟

قال : طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر . ووقع بها القصب من قامته ، حين علا عليه الماء وتكسر . فأصبح بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب . ناصل الخضاب . غارقا فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . وقطع طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء . وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء . فتنادوا مصبحين . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص . وغشيهم من اليم ما غشيهم ، فنادوا ولات حين مناص . وخر عليهم السقف من فوقهم فهدت قواهم . واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم . »

قلت : « فالروضة » ؟

قال : « أحاط بها إحاطة الكمام بزهره . والكأس بحباب خمره . فكأنه فيها بساط أخضر . وكأنه فيها طراز مذهب ، فلم يكن له فيها بدفع أصابعه يدان . وكم أنشد سرحها حين مرج البحرين يلتقيان :

أعينى كفا عن فؤادى فإنه   من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

قلت : « فدار النحاس » ؟

قال : « أنحس حالها . وأفسد ما عليها ومالها . فدخل من حمامها الظـهر . وقطع الطريق بالجامع الظـهر . فألحق مجاز بابه بالحقيقة . ورقى منه على درجتين فى دقيقة : كم اغترف ما جاوره من الغرف غرفا . وأطلق من مائه الأحمر النار بموردة الحلفا .

قلت : « فالخليج الحاكمى » ؟

قال : « خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية . ومرق من قسى قناطره كالسهم من الرمية . »

قلت : « فالمنشأة » ؟

قال : « أصبحت للبحر مقره . بعد أن كانت للعيون قرة . وقيل لمنشيها : أنى يحيي هذه الله بعد موتها . قال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة » . قد مال على ما فيها من شون الغلال كل

الميل . وتركها تتلو بفمها الذى شفتاه مصراع بابها : « يا أبانا منع منا الكيل » .

قلت : « فجزيرة أروى » ؟

قال : « قد أفسد جل ثمارها . وأتى على مقاتها ، فلم يدع شيئا من رديئها ولا خيارها . أخلق ديباجة روضها الأنف . وترك قلقا سها فى الجروف على شفا جرف .

بعينى رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهق فتكسرا

طالما تضرع بأصبعه إلى ربه . ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه . وتمثلوا بقول الأول :

وأن سألوك يوم البين عن قلبي وما قاسى
فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى

لم يفده تحصنه من أوراقه بالدرق والستائر . ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه ، فصح أن السلطان ماء جائر » .

قلت : « فحكر ابن الأثير . » ؟

قال : لم يبق منه إلا الثلث والثلث كثير . قد أخمل من دوره خمائلها . وجعل أعاليها أسافلها . فكم دار أعدم صاحبتها قراره . ونادى فى عرصاتها المتداعية . إياك أعنى واسمعى يا جارة . فأصبحت بعد نفعها قليلة الجدا . مستولية عليها يد الردى .

شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكت فى يومها أبكت غدا . »

قلت : « فبولاق » ؟

قال : « إملاق . قد التفت بها من الزلق الساق بالساق . فأتى منها من النوتية على الصغير والكبير . ومن المراكب ... على النقير والقطمير . هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر . وحيطابه يانعة الثمر . قد دنا قطافها . وحان تلافها . فكأنى به وقد منع رفده . وتلا على محرابه سورة السجدة . »

قلت : « فجزيرة الفيل » ؟

قال : اقتلع اشجارها ... وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها . قبّل ثرى الموتى فى التخوم . وعنت الوجوه للحى القيوم .

قلت : « فما الحيلة » ؟

قال . « ترك الحيلة

دعها سماوية تجرى على قدر لا تفسدنها برأى منك أرضى »

وهكذا طاف ابن أبى حجلة المغربى فى مقامته بكثير من نواحى مصر . ووصف ما ألم بها من طغيان النيل وارتفاع مائه .

دفاع عن مصر والنيل في مراسلة إخوانية

وتحدث بعضهم فى مراسلاتهم الإخوانية عن النيل . وفى خلال أحاديثهم الإخوانية فى هذه المراسلات قد يعرضون إلى شيء مما يتصل به . كفيضانه أو طغيانه أو فوائده لمصر أو نحو ذلك .

والرسائل أو المكاتبات التى سبق لنا عرضها والحديث عنها هى بالمقالات الوصفية أشبه . وكلها خالص لوجه النيل من ألفها إلى يائها على وجه التقريب . أما المراسلة الإخوانية فتتناول عادة ، أكثر من موضوع .

وقد روى الجلال السيوطى ما قاله المقريزى من أن الشيخ زكى الدين الحسين ، كتب رسالة من مصر سنة ٧٦٢هـ. إلى أخيه وهو بدمشق ، يتشوق إليها ويذم مصر .

فأجابه من دمشق يقول :

« يأيها الولد العزيز : كيف سمحت فطرتك السليمة . ومروءتك الكريمة . وسيرتك المستقيمة . وصبرك المحافظ . ودينك المراقب الملاحظ . بذم من جنيت نعيمها . وسكنت

حرمها . وقلت : مصر ومموَّمها . وسقت عليها القول من كل جانب . واستعرت لها التكدير حتى فى المشارب والمسارب .

وهلا ذكرتها ، وقد باكرها نيل النعيم بنعيمه . وبليل النسيم بكأس تنسيمه . وطمى البحر عليها زاخرا فأغناها عن بكاء السحاب وتجميمه . وعم أعظم أرضها . وعب عبابه فى طولها وعرضها . حتى كاد يعلو رفيع قصورها . وتسور سورته شامخ سورها . ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها . قد طبق التهائم والأنجاد . وغرق الأكاد والوهاد . وعلا على الصعيدوالصعاد . وأعاد البرسلطانه بحرا بالازدياد . فإذا ارتوى أدام أكباد البلاد . وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد . وذهب أملاق الأرض بكل ملقة خليج . وانجاب بها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . بدت روضة بأملاق مقطعة . كزمردة خضراء بلآلىء مرصعة . فكم من غدير مستدير . كبدر منير . ودقيق مستطيل . كسيف صقيل ... إلخ »

وهذه المراسلة الإخوانية طويلة كثيرة السطور قوية الدفاع عن مصر والنيل . وقد سجلنا هنا من سطورها ماجاء فيه ذكر نيلها . وهكذا ترى أنه شغلهم وشارك فى كثير من خصوصياتهم .

لغز فى النيل

كتبه الأديب أبو بكر بن العجمى

متى في ألغازهم تناولوا النيل وصفاته وما يتصل به ، وجعلوه محوراً تدور حوله أحيانا .

واللغز ضرب من التعمية فى الأسلوب . ونوع من الإبهام فى التعبير . حتى يبدو من ظاهره معنى لا يراد . فيعمى به عن المعنى الباطن البعيد المراد . ويضطرب ذهن السامع بين الألفاظ ومراميها . مترجحاً بين ظاهرها وباطنها . مستخدماً ذكاءه وخبرته ، وبصره بأساليب الأدب ومعانى ألفاظ اللغة للوصول إلى المعنى المطلوب .

وتكثر فى اللغز الأوصاف والعبارات التى تحتمل أكثر من معنى ، والتى تشترك بين أكثر من موصوف . ولهذا لابد فى اللغز من الاعتماد على ألوان من البيان والبديع كالمجاز والكناية وكالتورية والإبهام ، مع ألفاظ التضاد والاشتراك ، ومع الاعتماد على تصحيف الحروف وعكسها وتحريف الشكل فى المفردات ، وغير ذلك .

والأديب الملغز وصاف ماهر ، لأنه يعرض أوصاف الموصوف — موضوع اللغز — مبرزاً دقائقها ، ولكن فى ثوب معمى

وقالب مبهم مشكل، ويضع فيه من الرموز والإشارات، مايعاون على فتح المغاليق للوصول إلى المعنى المراد. وبتجمع الأوصاف يتضح الموصوف ويعرف.

وفى اللغز — كما رأيت — طرافة أدبية ودعابة إخوانية وتجاوب ذهنى واختبار للذكاء وراحة نفسية. فهو بضاعة من بضائع الأدباء، وليس ملهاة من ملاهى أوقات الفراغ.

وإليك لغز ابن العجمى، قال:

« سألتك — أعزك الله — عن سائل لا حظ له فى الصدقة، وإن يكن متصل النسب بالأشراف. كثير الرجفان من غير أن يخاف. كم رد سائله نهراً. وعفر وجه قاصده بالتراب قسرا. مذكر كثير الحيض. لطيف الانبساط سريع الغيض. يتشعب ويتكسر. ويتعوج ويتدور. وله خمسون عيناً وأكثر. يحمل القناطير المقنطرة. ويعجز عن حمل إبرة. سريع الاستحالة. قلما يلبث على حالة. بعيد الخوض ليس له قرار. يعاجل صفا وارده بالأكدار. يسكن فى تخوم الغبراء. وينم على أحوال السماء. رقيق القلب على كل عديم وكيف لا وهو الولى الحميم. يجود بأنفس الحلى. ولا يرد من نداه مؤملا. كم عمّر سبيلا. وقطع طريقاً وأخاف سبيلا. وطغى واحترق. وأظهر الحقائق

وهو كثير الملق . وكم علا درجا وحط قدر الدقائق . وقلع بأصابعه عين كل مارق . وكم طهر أمماً من أرجاسها ، وأماط عن أرض بذا أدناسها ، وكم درأ عن شيخ خبثا . ورفع كهلا وحدثا ، صيقل يجلو الصدى . ويظهر على شدة البرد تجلدا . كم أباح محرماً للعباد . وأكثر الفساد في البلاد . وكم رأينا جارية تجرى لمستقرها فيه وتجنح . وتلوح فى فلكه وتسبح . جمع فيه الخوف والرجاء . والكدر والصفاء . ومن العجائب أنه كافر وكم أعان على العبادة أهل الصلاح . وأفاض نزيله بالنية ولم يخش فى ذلك من جناح . فسبحان من جمع فيه الأضداد . وأرسله رحمة للعباد» .

ونلاحظ أن الكاتب فى خلال لغزه ، قد وصف النيل جملة أوصاف تدل على التقدير والتقديس ، ومن ذلك : أنه يحمل القناطير المقنطرة . وأنه رقيق القلب على كل عديم . وأنه يجود بأفخر الحلى وأنه لا يرد من نداه مؤملا . وأنه يعمر السبيل . ويطهر الأمم من الأرجاس . وصيقل يجلو الصدى . ويعين أهل الصلاح على العبادة ، وأنه أرسله الله رحمة للعالمين .

* * *

وبعد . إذا كان لنا أن نختم هذا الفصل الذى تحدث فيه شيء من نثرهم الفنى ، عن مدى اهتمامهم بالنيل وشغله لعقولهم ونفوسهم معاً ، فانطلقوا مفكرين فيه مقدرين له ، يفيضون

بعواطفهم الجياشة نحوه، فلنختمه بهذه السطور القليلة التى تتضمن أحد أدعيتهم لله من أجل النيل ، إذا خرجوا فى يوم للاستسقاء وإليكها دالة على محبة ورجاء .

دعاء

من إحدى خطب الاستسقاء التى سجلها السيوطى

« اللهم فارج الهم . كاشف الغم . مجيب دعوة المضطرين . رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها . أنت ترحمنا . فارحمنا رحمة من عندك تغننا بها عن رحمة من سواك . اللهم بقدرتك أجر نيلنا وبلغ به المنافع . وعم به جميع الأراضى والمزارع . اللهم وفّـر من الجنة مزاجه . وأكثر به البركة ، وادفع به الحاجة . اللهم أنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت علينا من بركات الأرض . اللهم أنبت لنا الزرع . وأدرّ لنا الضرع . اللهم بالعباد والبلاد من الاحتياج إليه مالا يعلمه إلا أنت .

اللهم ارحم ضعفنا وقلة حيلتنا وعجزنا . ولا تؤاخذنا بما جنته أيدينا . اللهم قد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا » .

النيل فى شعر الشعراء

يبدو حب النيل وتقديسه فى شعر الشعراء ، أروع ما بدا فى الحياة المصرية . والشعراء — فى أغلب أمرهم — ألسنة صادقة معبرة عن عواطف الشعب ، وعما يجيش فى نفسه. فهم صداه ومرآته . فإذا كانوا قد استجابوا للنيل ووحيه وحبه ، فإنما دلوا بذلك على مبلغ ما كانت عليه مشاعر الشعب .

والحق أن شعراء مصر فى عصر المماليك ، لم يقصروا — كما يزعم بعضهم — فى إبداء شعورهم نحو النيل ، والتعبير عن مشاعر المصريين نحوه ، وتصوير حبهم له . وكيف وهو مصدر اليمن والبركة ، ومنبع الخير والرزق ، وعليه فى جملة الأمر مدار الحياة وقوام المعيشة .

لقد حنوا إليه إذا غاب ، وتغنوا به إذا آب . ولقوه فى لهفة المحب الوامق ساعة أقبل ، واحتفوا بفيضانه واحتفلوا بوفائه وكسر خليجه . وأنشدوا الأناشيد لدى مقياسه ، وتغزلوا فى أذرعه وأصابعه ، وطافوا بأهازيجهم فى مياهه وخلجانه ، وداروا باغاريدهم حول جزره وبساتينها وأزاهيرها . وخلدوا

كثيراً من مرائيه ومشاهده وآثاره ، وسجلوا كثيراً من ذكرياتهم وعاطفياتهم عنه .

ومن التعسف فى الحكم أن نستقرىء قليلا من النصوص الشعرية ، وبناء عليها نرسل هذا الحكم فجاً فطيراً لا إنصاف فيه ولا عدالة . أو نقف أمام أبيات فيها شىء من الصناعة اللفظية ونحكم بها وحدها على جملة المشاعر والأحاسيس . أو يخدعنا زخرف بديعى فيها عن استكناه ما وراءه من عاطفة .

لقد كان عصر المماليك عصر زخارف فى الأسلوب ، وعصر صناعة بديعية ، ملكت زمام الأذواق والأقلام . وحل ذلك محل الرضا والقبول فى مجالات الأدب والأدباء . ولكن ليس معنى ذلك مطلقاً أن هذه الصناعة كبتت الخيال أو حجبت العاطفة أو قضت على المشاعر ، كما يزعم بعضهم ، بل لعلها كانت إحدى وسائل الخيال إلى الإبداع .

لقد قال صلاح الدين الصفدى :

قالُوا عَلاَ نيلُ مصرٍ فى زيادتِهِ
حتى لَقَدْ بَلَغَ الأهرام حينَ طَمَى
فقلْتُ هَذَا عجيبٌ فِى بلادِ كُمُ
أَنَّ ابنَ ستةَ عشرٍ يبلغُ الهَرَمَاَ

وكان النيل إذ ذاك ، قد بلغ فيضانه حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعاً — وارتفع إلى منطقة الأهرام . فسجل الشاعر الحادث الفريد ، وسجل معه تعجبه منه ، وصب ذلك فى قالب من التورية والمداعبة بلفظ « الهرم » . ولا ننكر ما فى ذلك من النزعة الأدبية . فالشعر ليس ديوانا للحقائق العلمية والأفكار الجافة السافرة ، بمقدار أنه ديوان للتصورات الأدبية والأخيلة الجميلة المثيرة .

ومن الظلم أن نحاسب الشاعر هنا على توريته فقط ، ونغفل عما وراءها من عاطفة ومداعبة . لقد فكر الشاعر — ولاريب — فى النيل ، وشغله وفاؤه ومظهره ، فصوره فى قالب التورية .

هذا ، ويذهب الخيال باديب مصر الكبير ، محيي الدين بن عبد الظاهر ، فيسرح به فى مسارح الفتنة ، ويثير فى نفسه ثائرة العجب ، ويمضى به من معنى إلى معنى ، حتى يتصل المعنيان ، ويتعاكسان، ويقلبان الشاعر بين الإحساس بالإعجاز وبالإعجاب، وذلك فى قوله :

نيلُ مصرٍ لِمَنَ تَأَمَّلَ مَرْأَى
حُسْنِهِ مُعْجِزٌ وبالحسن مُعْجِبْ

كَمْ به شابَ فودُها وعجيبٌ

كيفَ شابَتْ بالنيل والنيلُ يُخضِبْ

والبيت الثانى غاية فى الدقة تصوراً وتصويراً ، مع سهولة ألفاظه ووضوحها . لقد ذهب خيال الشاعر مع النيل ، وهو يروى الأرض ويسقى الزرع وينمى النبات ويفتح الزهر ، فيبدو أبيض مشرقاً يملأ فود مصر بياضاً . والنيل بمائه وبطينه يكسو الأرض خضاباً . وهكذا اجتمع اللونان فى خيال الشاعر : البياض والاحمرار . وهما معاً من صنع النيل وفعل يديه ، وهما مظهر إخصابه.

وذهب خيال الشاعر إلى اعتبار البياض شيباً ، والاحمرار خضابا . واجتمع الاثنان . وصانعهما معاً النيل . فكان هذا مثار العجب ومثار الإعجاب .

ولعل الشاعر فى قوله : « والنيل يخضب » ، يورى بلفظ « النيل » ويقصد الصبغ .

وفى البيتين يبدو ارتباط وثيق بين حياة مصر وبين النيل ، بهذا التأثير وهذا التأثر .

ورأى الشاعر شمس الدين بن دانيال الموصلى ، إقبال النيل راويا فى تدفقه حديثاً عذبا مسلسلا . فعلل ذلك تعليلا لطيفاً ،

هو سنحة من سنحات الخيال ورقيق التصور . مزج فيه مزجاً جميلا بين معانى الرى والكرم ، كما مزج بين معانى الرى والرواية.

لقد رأى النيلُ فى أرضه شقيقه ، فأكرمه بأن ضمخها له بمائه المصندل . والمناسبة واضحة بين التضميخ ولون الشقيق ، والشقيقُ يسقى من هذا الماء .

فى كل ذلك أوصاف وصناعة ، ولا ريب ، ولكنها متجهة إلى إبراز محاسن النهر ، وكشف مفاتنه ووجوه إبداعه وجمال صنعه.

يقول الشاعر :

كأنما النيلُ الخضَمُّ إذْ بَدَا
يَرْوِى حديثاً وهو ذُو تسلْسُلِ
لما رَأَى الأرضَ بها شقيقهُ
ضَمَّخَها بمائِهِ المُصَنْدَلِ

ويتحدث ناصر الدين بن النقيب ، عن النيل ، وكأنما هو إنسان ذو دراية وإرادة ، وله عناية بضبط أوقاته ، وله رأيه فى ذهابه وإيابه ، وفى فهمه وتقديره لمواعيد حاجة الناس إليه .
يقول الشاعر :

كأنَّ النيلَ ذو فهمٍ ولبٍّ
لِمَا يَبْدُو لِعَيْنِ الناسِ مِنْهُ
فيأتى عندَ حاجتهمْ إليه وَيَمْضِي حين يستغنُونَ عَنْهُ

ولا أدرى بالضبط ، متى كان الناس يستغنون عن ماء النيل فى ذلك الزمان . لعل ناصر الدين ابن النقيب — وهو لا ريب شاعر فطن — يرى أن ذلك الوقت وقت التحاريق . وهو وقت فى زمانه لم يكن الناس يزرعون فيه الأرض ، أو لم يكن الزراع فى حاجة ماسة إلى مائه لسقيها . إذ كان الرى رى حياض .

وبدهى أن الشاعر يقصد بمجيء النيل ومضيه ، فيضانه وتحاريقه. واعتقد أن لو عاش ابن النقيب إلى زماننا ، لغير رأيه ، بعد أن انتشر الرى المستديم ، وأقيمت على النيل مشروعات خزن المياه ، للتحكم فى مياهه وفى الفيضان للانتفاع بذلك طول العام ، مع تقسيم السنة إلى دورات زراعية ، بحيث لا تخلو أرض من زرعة ، أو من تمهيد لها . وأصبحت الأرض لا تستغنى عن الماء طول العام .

ويتحدث إيدمر التركى عن سحر النيل وكيميائه ، ويبين كيف استطاع أن يحيل لجين تربته ذهباً ثم وقف راقصا مبتهجاً

بما أشاع من حسن ، وما نشر من جمال . وطفق يغنى ومغانى مصر تسمعه ،ونسمة الريح ترقص الأغصان على أنغامه وأناشيده.

يقول الشاعر .

كِيمِيَاءُ النيلِ خَالصةٌ قد أتَتْنَا منه بالعَجَبِ
كانَ من ذَوْبِ اللُّجَيْن فَقَدْ عَادَ بالتدبيرِ مِنْ ذَهَبِ
راقصٌ بالُحسْنِ مُبتهِجٌ فهو فى عُجْبٍ وفى طَرَبِ
ومَغَانِى مِصْرَ تَسْمَعُهُ نغمةُ الشادِى بلا صَخَبِ
ونسيم الرِّيحِ لاعَبَهُ فى خلالِ الرَّوْضِ بالقُضُبِ

وهكذا ألّف الشاعر فى أبياته الثلاثة الأخيرة ، حفلابهيجاً فيه الراقص والمغنى والسامع واللاعب بالقضب . .

ويتناول الشاعر نفسه ، منظر النيل وجداوله المنسابة منه ، وهو مقبل سعيد ، وماؤه يتدفق فى جداوله رقراقا مثل السلسل فيأتلق الحسن بذلك ويشرق . وتكثر ألوان الجمال ما بين مورد ومصندل. وينطلق ماؤه فى قيد الرياح. فياله من مطلق مسلسل...

ويتجه الشاعر إلى زوارق النيل ، فيراها جميلة المرأى ، وهى تتحرك محمولة على رقاب الأمواج ، تسعى بها كما تسعى حيات

لينة لدنة ، ركبتها عقارب . والأسماك من تحتها ، فضة مما جمد من ذائب مائه .

يقول الشاعر :

أنظرْ إلى النيلِ السعيدِ المُقْبلِ
والماء في أنهارِهِ كالسَّلْسَلِ
أَضْحَى يُريكَ الحُسْنَ بَيْنَ مُوَرَّدٍ
مِنْ لَوْنِهِ حيناً وَبَيْنَ مُصَنْدَلِ
وَيَمُرُّ فِي قيدِ الرياحِ مُسَلْسَلاً
يا حُسْنَهُ من مُطلَقٍ وَمُسَلسَلِ
وترى زَوَارِقهُ على أمواجِهِ
منسوبةً للناظرِ المتأملِ
مثلَ العقاربِ فوقَ حياتٍ غدتْ
يَسْعَى بها فى عَدْوِهَا لا يأتلى
وَكَأَنَّمَا أَسْمَاكُهُ مِنْ فضةٍ
مِنْ جَمْدِ ذَائِبِ مائِهِ مِنْ أَوَّلِ

وبين سعادة النيل وإقباله ، ومائه المسلسل المورد المصندل ، والزوارق الجميلة التي هي موضع النظر والتامل ، والأسماك الفضية ، شذ الشاعر بذكر العقارب والحيات ، وإن كان التشبيه بهما محبوكا.

وبرهان الدين القيراطي ، تحلو له موارد النيل ومصادره ، ويدعو ألا يبعد عنه شاطئه ، ويفضله على أنهار الشام ، ويرى له شيما وأخلاقا حسنة محمودة ، لا تفاضله فيها الأنهار الأخرى .

ويشبب الشاعر بمن حول النيل من الملاح الحسان ، وما ينبت من غصون بان .

يقول الشاعر :

خَلِيلَيّ بحرُ النيلِ لا شَط شَطُّه
مواردُه تحلُو لنا والمصادِرُ

فدع عنكَ أنهارَ الشآم ولا تَكُنْ
لِكَوْثَرِهِ بالنذرِ منها تُكاثِرُ

له شيمٌ فى الُحسْنِ ظاهرةٌ عَلَتْ
تدورُ على الأنهار منها الدوائرُ

بجانبه تُمسِى المِلاَحُ كأنها

بساتينُ فيها للعيونِ مناظرُ

فكم غُصْنِ بانٍ فيه للعين نرجسٌ

وللخد وردٌ عاطرُ الزهرِ ناضرُ

وإذا زاد بحر النيل رأى فيه البرهان القيراطى ، عجائب وحسنا وفضلا لايخفى عن ذوى الفضل ، إذ يصبح ماؤه سكّرِى المذاق ، وتلعب أمواجه وتتراقص ، وتدور من فوقها الجوارى، وتجبر القلوب بكسر خليجه .

يقول القيراطى :

إذا زادَ بحرُ النيِّلِ زادَ عجائبًا

وحسنًا وفضلاً ماانْختَفَى عَنْ ذَوِى الفَضْلِ

حَلاَ منهُ ماءٌ سُكَّرِىٌ مذاقُهُ

بإجماعِ أهلِ الذَّوْقِ والعَقْدِ والحَلِّ

يروق لإخوانِ الصفاءِ مُكرراً

فأكدارُهُ عينُ الصفاءِ لمُسْتَحْلِي

وكم لعبتْ أمواجُهُ ورَاقصَتْ
ودارتْ به تلك الجوارى عَلَى رِجلِ

وجبرُ قلوبِ الناسِ فى كسره كما
بمقياسِهِ قد جاز مقياسُ ذى العقل

وجبر قلوب الناس فى يوم كسر السد ، حقيقة لا مجاز ، وواقع لا صنعة فيه ، وإن بدا طباقا . وذلك لأنه فى يوم كسر السد تقام الحفلات وتوزع الصدقات ، وتروج الأسواق للبيع والشراء . هذا فضلا عن أنه يرمز إلى وفاء النيل . وبوفاء النيل يستحق الخراج ، وهو إيذان بسقى الأرض وتسجيل لجودها بالحصاد والثمر . وفى كل هذا جبر لقلوب الناس ...

وحقيقة استغل الشعراء لفظى: الجبر والكسر ، فى كثير من الأبيات التى تحدثوا فيها عن خليج النيل وسده . وساقوا المطابقة بينهما فيها ، وتلك بركة من بركات النيل ، وجانب من الثراء الذى يهبه . وليس الثراء اللفظى أو المعنوى ، وإعطاء القدرة على التصرف فيه ، شيئا قليلا ... على رغم المكابرين ..

وكما استغلوا هذين اللفظين ، استغلوا ألفاظ: الوفاء والزيادة والماء الحلو والماء السكرى والذوق ، والكمال ، وغيرها من ملابسات النيل .

والبرهان القيراطى أحد هؤلاء الشعراء ، وفى جملة شعره عذوبة ورقة ، ومعنى وجمال تصور وتصوير ، وعمق شعور معا.

وقد زاد النيل فى عام ، فعبر عن الزيادة ب « السمو » . واعتبر جرى مائه فوق الحصباء والجنادل ، مددا لفخارها على النجوم والشهب . ويقول فى ذلك .

سما نيلُ مصرٍ كلَّ بحرٍ وجدولٍ
فأبحرُها تعنُو له والجداولُ
جرى فوقَ حصباءِ الجنادلِ فاعتَلَتْ
وفاخَرَتِ الشهبَ الحصى والجنادلُ

ولعب بلفظى : « الوفاء والكسر » ، فقال مستمدا من أوصاف النيل :

جَفْنِي وجفنُ الحِبِّ قد أُحرزَا
وصْفَيْنِ من نِيلِكِ يا مِصْرُ
جفنى له يومَ الوداعِ الوفا
وجَفْنُهُ الساجِي له الكسرُ

واستعمل : «الكمال والزيادة» ، فنسبهما إليه مع «الفضل » كما نسب إلى تياره الأوصاف والشيم الطاهرة ... قال :

لنيلِ مصرَ كمالٌ في زيادَتِهِ
وفضلُه غيرُ مخفيٌّ ومكتتمِ

إذا بَدَتْ لَكَ مِنْ تيَّارِهِ شِيَمٌ
رأَيْتَهُ طَاهِرَ الأوصافِ الشِّيَمِ

و « حلا » نيل مصر فى ذوق القيراطى ، فكان «سكرا » أغنى النديم عن «السُّكْر» . لذلك يطلب إليك « تكراره» . وهكذا بلغ ماء النيل لدى هذا الشاعر ، فى حلاوته ، مبلغ الخمر ، بل فاقها ، لأنه يغنى عنها ، ولا يشعر النديم مع وصفه بحاجة إليها .

يقول القيراطى :

حَلاَ نيلُ مصرٍ فهو فى الذوقِ سُكَّرٌ
وأمداحُه فى كثرةٍ عددُ القَطْرِ

فكَرِّرْ عَلَى سَمْعِي أحاديثَ وَصْفِهِ
فسُكَّرُهَا يُغْنِي النَّدِيمَ عَنِ السُّكْرِ

وتبارى الشعراء وتسابقوا فى وصف كسر الخليج وبيان فضله وذكر ميعاده ، وما يتصل بذلك أيام فيضان النيل . وذكروا المقياس ووروا بأذرعه وأصابعه ، وشببوا به وبمنازهه ، وسجلوا له أياما من أيامه ، وليالى من لياليه .

يقول إياس بن عبد الله الذهبي فى كسر الخليج :

كُسِرَ الخليجُ وكانَ ذلك نِعمةً
سَرَّتْ قلوبَ المسلمين بِسِرِّهِ
ومن العجائبِ والغرائبِ أنَّهُ
جُبِرَتْ قلوبُ المُسْلِمِين بِكَسْرِهِ

ومثله قول الشاعر شمس الدين بن المشد :

لِلّهِ درُّ الخليجِ إنَّ له تفضلاً لا نَزَالُ نَشْكُرُهُ
حسبُكَ مِنهُ بأنَّ عَادَتَهُ يَجْبُرُ مَنْ لاَ يزالُ يكسِرُهُ

ويذكر ابن إياس الحنفى المؤرخ ، وفاء النيل وكسر خليجه وجبر القلوب به ، ويورى فيها وفى غيرها ، ماشاءت له صناعته. قال :

يا نيلَ مصرٍ كم يدٍ لَكَ بالوفا
أَوْلَيْتَنَا بالكسرِ جبراً دائمًا
قد زدْتَ قبلَ الكسرِ خمسَ أَصابعٍ
كَرَمًا فكانَتْ للوفاءِ خَوَاتِمَا

وينتزع تقى الدين ابن حجة الحموى توريته من ملابسات النيل ، فيقول ، وهو يمدح الملك المؤيد شيخا يوم كسر الخليج

ـــ وكان قد بلغه أن الأمير نوروز الحافظى ثار فى وجهه ببلاد الشام ، ووصل إلى غزة محاربا ـــ ويتنبأ ابن حجة بهزيمة نوروز ، فتتحقق نبوءته :

أيَا مَلِكاً باللهِ صَارَ مُؤَيَّدًا
ومُنْتَصِبًا فى مُلْكِهِ نَصْبَ تَمييزِ

كَسَرْتَ بِمِسْرَى نِيلَ مصرَ وَتَنقَضِى
وحَقِّكَ بعدَ الكسرِ أيامُ نيروزِ

والنيروز عيد يعقب يوم الكسر . وقد قتل الأمير نوروز بعد قليل .

والبيتان ، وإن كانا غير موجهين إلى وصف النيل ، يدلان على المدى الذى يشغله النيل وأيامه من نفس الشاعر ، فاعتمد على بعض المعانى المتصلة به ، فى استحداث معان أخرى .

وللشهاب المنصورى دفقة شعوريه عميقة ، ترجمها شعرا ، طاف به وبأبياته حول النيل فى عيد وفائه ، حتى أودعها مرائيه ومشاهده .

لقد حمد الله فى أول أبياته على وفاء النيل ، واعتبر ذلك وفاء من محبوب ، ووفاء المحبوب مأمول . ونعى فى آخر أبياته

على من يرغب عن نيل مصر ، واعتبره غافلا ، وعالنه بأن قلبه مجبول على حب هذا النيل .

وما بين البيتين — الأول والأخير — صور وأخيلة ، من صور النيل ومشاهده الجميلة ، ذات الحسن وذات النعمة . وبذلك كله صارت أبيات هذا الشاعر تسبيحا نبيلا ، ودعاء لله وصلاة في يوم الوفاء .

لقد تابعت عين هذا الشاعر الوصاف ، جواد النيل في جريه ، ورأى زبد الأمواج يحجل سيقانه ، والنيل لا يسعى إلا إلى الخير ونشر الخصب . ورأى حببه طافيا ينثره ، فكأنه منهل للراح . وشاهد نسيم الصبا يباكره في الصباح ، فيجعد صفحته فتبدو كاللأمة . وراقب الريح تسل أمواج النهر صوارم تقتل محل الأرض. وتابع السفن على سطحه وهي جوار غادية مزدانة ، تزورك وتصلك وتهب لك ما تشتهي ، دون عسر أو ممانعة ، فإزارها قبل أن تلقاك ، محلول ... فما أطوعها ..

ويأبى خيال الشاعر البارع ، ويأبى إحساسه العميق ، إلا أن يقيم من الأمواج والشط وخرير الماء والروضة والأغصان والزهر وأوراق الدوح وعناقيدها وغيرها ، حفلا ، أو قل عرسا مكتملا ، تغشيه الفرحة ويحدوه السرور .

فالشط دف والأمواج تلعب به ، والخرير يغنى باطراد ، وجزيرة الروضة غانية حسناء شغل النيل قلبها ، والأغصان تميس وترقص وتشرب من المـاء فيحلو ريقها . وقد لبست من حلل الزهر الخضر ما لبست ، ووضعت على سورها الأكاليل ، وامتدت أوراق الدوح خياما مظللة ، ولاحت العناقيد كالقناديل وتدلت العثاكيل قلائد من الياقوت ، تحلى بها النخيل . . . إلى آخر ما صور يراع الشاعر المبدع ..

إن هذا الفرح الشامل ، والحفل الملتئم ، إنما شمل نفس الشاعر والتأم معها . جال فى خاطره ونما فى خياله واتسعت له نفسه . ثم فاض على لسانه معبرا عما وعاه فى حسه الباطن ، من فرح بالنيل واحتفاء بوفائه .

قال الشهاب المنصورى :

الحمد للهِ أوفَى وعدَهُ النيلُ
إنَّ الوفاء من المحبوب مأمولُ
جَرَى جواداً فمِنْ داراتِهِ غررٌ
له ومنْ زبدِ الأمواجِ تحجيلُ

يُنَظِّمُ الحبَبَ الطـافى وينثُرُه
كَـأنَّه منهلٌ بالراحِ مَعلولُ «مَعْلولو»

كأنَّه والصَّبَا صُبحاً تُجَعِّدُه
من نسجِ داودَ فى الهيجا سراويلُ

كأنَّ أمواجَهُ والريحُ تنشرُهَا
صوارمٌ بظُبَاهَا المحلُ مقتولُ

كأنما السُّفْنُ غاداتٌ جرينَ به
لهـا المراسى شُنُوفٌ أو مراسيلُ

من كُلِّ جاريةٍ كالخوْدِ زائرةٍ
إزَارُها قبلَ أنْ تلقاك محلولُ

كأنما الشَّطُّ والأمواجُ تلطِمُهُ
دفٌّ لها وخريرُ المــاء موصولُ

كأنما الروضةُ الغناء غانيـة
بحسنها قَلْبُ هذا النيلِ مشغولُ

أغصانُها من غُصُونِ الدوحِ مائسةٌ

وريقُها من زلالِ المـاءِ معسولُ

مِنْ سندسِ الزهَرِ الزّاهِى لها حُلَلٌ

خُضرٌ ومن سُورِها العالى أكاليلُ

ومَدَّتِ الدَّوحُ مِنْ أوراقها خِيَماً

ومن عناقيدها لاحَتْ قناديلُ

وللنخيل إذا ماسَتْ قلائدُ مِنْ

حمرِ اليواقيتِ حاكَتْهاَ العَثاَكيلُ

لا غَرْوَ أن سَحَرَتْ عينى وخُيِّل لِى

بأنهـا ذهبٌ وهى التماثيـلُ

يا من له رغبةٌ عن نيلِ مصرَ أَفِقْ

قلبى على حبِّ هذا النيلِ مجبولُ

وبدر الدين البشتكى يذهب هذا المذهب فى حب مصر وعشق نيلها ، واحتفال نفسه بوفائه ، وابتهاج خاطره بما يصاحب الوفاء ، من مظاهر الحياة والنشاط .

وهو على حبه لمصر ، وكرامتها عنده إلى درجة يهون على نفسه أن تهون دونها ، وتبقى لها هى قداستها وكرامتها ، يتأبى قليلا على هواها ، تأبى العاشق الغاضب ، والمحب العاتب ، ويتردد دون الإقامة فيها . . . فلعل هناك من أمور الحياة ما كان يشق عليه ، ويدفعه حينذاك إلى هذا التأبى والتردد .

لقد ذكر أنه رأى ربيع العيش فيها محرما ، و أن النيل إذا ما طمى ازداد الفتى ظمأ . أعتقد أن هذه رموز إلى ما كان يشق عليه حينذاك ويشقيه ، من ضيق عيش أو تنكر حياة ، أو حجود صديق ، أو نحو ذلك من أكدار الحياة . وما كان أكثرها فى ذلك الزمان .

على أن الشاعر لم يصبر طويلا على ترديد هذه النغمة ، وسرعان ما عاد الصفاء إلى نفسه وحديثه ، وعاد الحب طاغيا على أحاسيسه ، وشاع الفرح والرضا على مشاعره ، فنطقت بذلك كله أبياته حيث يقول :

خليليَّ من مصرٍ أشيرَا على فَتًى
يهونُ عليه أن تهونَ وتُكرمَا

أأرحلُ عنها أم أقيمُ فإنَّنِي
رأيْتُ ربيعَ العيْشِ فيها مُحَرَّمَا

نعمْ وأنالُ النيلَ في مصرَ إنه
إذا ما طَمَى يزدادُ فيها الفَتَى ظَمَا

على أنَّنِي أهْوَى هواه وناظِرِي
إذَا ما جَفاَهَا أنجمَ الدمعُ أنْجُمَا

فذلك أيامَ الوفاءِ بروضةٍ
وشَمْلِي علَى مَنْشُورِهَا قد تَنَظَّمَا

إذا المُشْتَهَى المعشوقُ جادَ بِمُنْتَهَى
مرامِي وبالمقياسِ همى تَقَسَّمَا

وكَمْ من حسودٍ سَرَّهُ سوء حَالَتِي
فلَمَّا رآنِي في البريمِ تبَرَّمَا

كأنَّ الغصونَ المائساتِ رواقصُ
شَرِبْنَ مُداما حَلَّ ثَمَّ مُحَرَّمَا

والشاعر يتحدث عن جزيرة الروضة ، وعن بعض منازه مصر ، وهي المشتهى والمعشوق .

وعلى نمط من هذا الشاعر ، يمدح شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، الأمير يلبغا العمري يوم أن قام بكسر الخليج نائبا

عن السلطان . فما يلبث الشاعر ، وهو فى غمرة المدح ، أن ينساب إلى النيل ، فيعمر أبياته بذكره ، وبأوصافه ونعت مشاهده.

وقد استهل قصيدته بقوله :

أتانى من نحو الحبيب بشير
فكدت إليـه بالسرور أطير

حييتُ إذا ما لاحَ دينارُ خَدِّهِ
فإنِّى إليـه ما حَيِيتُ فقيرُ

وهو مستهل بارع ، كما ترى ، لمناسبته لموضوع القصيدة ، ولأنه يحدث بوضوح ، عن نوع العاطفة التى دفعت الشاعر إلى النظم ، وهى العاطفة التى صاحبته فى جميع أبياته ، وتلك دلالة على صدق شعوره ، واندماج نفسه بمعانى الوفاء ..

فالشاعر أتاه بشير من قبل حبيبه ، ولا بد أنه بشره بوصوله أو بوصاله ، فكاد من أجل ذلك يطير سرورا . وبين هذه المعانى وبين وفاء النيل ، مناسبة واضحة .

وانتقل الشاعر بعد ذلك ، وبعد أبيات ، إلى ذكر النيل والتشبيب به ، واندفع به شغفه إلى التحليق بخياله والطواف بصورته ، ليجمع من زوايا خاطره ما استطاع من محاسن النيل ومفاتنه .

لقد رأى قلاع الزوارق البيض ، رايات على النيل معلنة بالوفاء . ورآه حصنا لمصر حصنها فى على سعدها ، و به دارت سواقى مصر فى كل روضة ، تقتل الجدب وتثير الخصب . وطير الماء يبشر فتعم الفرحة . وحباب مائه كأنه كواكب تضىء ، وكأن ماءه يزحف بكتائب وعسكر جرار ، وشقيق الروض حول أقاحه ، خدود وثغور ، وقدود الغيد فى روضه غصون فوقها بدور ...

بهذا النغم المشحون بالمحبة ، المليء بالتقدير ، يسوق ابن أبى حجلة أبياته ؛ فيقول :

أرَى الرايةَ البيضَا على النيلِ بالوفاَ
إذا لاحَ لى قِلْعٌ عليـه كبيرُ

وحصَّنَ مصراً فى عُلَى السَّعْدِ عِندمَا
غَدَا وله حول المنـازلِ سورُ

ودارت سواقِى مصرَ فى كُلِّ رَوْضَةٍ
على مِثلِهـا كان الخصيبُ يدورُ

وبَشَّرَ طيرُ المـاءِ فيـه غرابَهُ
فـكادَ بأرياشِ القـلاعِ يطير

نعمْ طارَ فوقَ الماءِ وهو مُخَلَّقٌ

وعَمَّ البرايا فرحــةٌ وسرورُ

ويقول :

كأنَّ حَبَابَ الماءِ فيــه كواكبٌ

تضيء فتبــدو تارةً وتغــورُ

كأنَّ لزحفِ المـاءِ فيه كتائبٌ

لعسكرِها الجرارِ فيــه عبورُ

كأنَّ شقيقَ الروض حولَ أقاحه

خدودٌ على وجــه الربا وثغورُ

كأنَّ قدودَ الغيدِ فى الروضِ حولَه

غصون ومِنْ فوقِ الغصونِ بدورُ

ومدح ابن أبى حجلة أيضاً ، خليفة عصره أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح ، عام ٧٦٢ هـ ، فانساب أيضا الانسيابة نفسها ، إلى ذكر النيل ، ووثب بخياله إلى صوره الجميلة ، الوثبة نفسها .

فيراه ، إذا ما بدا وماؤه كدر ، صفا به عيش البرية .

وشنف سمع الأرض بالقرط ، وحلى جيد الروض بالزهر ، فباح نمامه بطيبه ، وجلا خد الشقيق بحمرته . ويرى له تكرما وهو فى أرض الكرم : فيسقى أشجارها ودواليها . . .

يقول ابن أبى حجلة عن النيل ومصر ، ويورى ببعض ألفاظه:

إذا ما بدا والماء فيه مُكَدَّرٌ

رَأَيْنا به عيْشَ البرِيَّةِ صافياً

يُشَنِّفُ سمعَ الأرض بالقُرط دائماً

ويترك جيدَ الروضِ بالزهرِ حالياً

يُذَكِّرُنى رشفَ الثغور أقاحُها

ولم أكُ ناسيها ولا مُتَناسِياً

فكم روضةٍ نَمَّامُها عَرفُ طيبِهِ

إذا ما أَمِنَّا عَذْلَه بات واشِياً

بِفَمٍّ على خدِّ الشقيقِ إذا غدَا

بِرَوْضَتِهِ الفيحاءِ بالخالِ جَالِيَا

فللنيلِ فى أرضِ الكرومِ تكَرُّمٌ

يُرَوِّى بها أشجارَها والدواليا . . الخ

ومما يدلك على أن النيل كان شغلا شاغلا لشعراء مصر فى عصر المماليك — وإذا نحن لم نستثن منهم واحدا فى هذا المقام، لا نكون مبالغين — أن أحدهم وهو الأديب الدين بن الحاجب نظم فيه مجموعة من الأشعار مستقلة، سماها: « مقطعات النيل ».

قال الجلال السيوطى: « إن بدر الدين هذا نظم « مقطعات النيل »، وأفردها فى ديوانه فى جزء منه بهذا الاسم، وهى مقطعات كثيرة العدد، تدور حول وصف النهر وبيان محاسنه ووصف مائه ورياضه ومقياسه ووفائه، إلى غير ذلك.

وقد سجلها السيوطى — أو سجل بعضها — فى كتابه « كوكب الروضة ».

ومن هذه المقطوعات قوله يفضل نشر رياض النيل على روائح الشباب، لأن النيل يسقيها:

قد فاحَ للرِيَّاض نشرٌ عَطِرٌ
أطيبُ مِنْ رَوَائِحِ الشَّبَابِ
وكيفَ لاَ والنيلُ يَسْقِيَ دَوْحَهُ
مِنْ مائِهِ المُصَنْدَلِ المُـذَابِ

ومنها قوله يذكر مسك النيل موريا :

فى النيـلِ طـينٌ ومِسْكٌ ثنـاؤُهُ خـيرُ عِطْرِ
فاعجـبْ لهُ حـينَ وَافَى مُمَسَّـكاً وهو يَجْـرِى

ومنها يذكر محاسنه ووفاءه :

محاسنُ بحرِ النيلِ لم تُحْصَ عدةً
فقـدْ طابَ مسموعٌ لهُنَّ ومنظورُ
تَخَلَّقَ بالوَصفِ الجميلِ على المدى
وزادَ عَلَى حُسْنِ الوَفاَ وهو مكسورُ

ويضج الناس ويجأرون بالشكاية ، إذا لم يصل ماء الفيضان إلى حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعا — إذ أنهم فى عامهم ، يتوقعون الجدب فالقحط فالغلاء ، فالجوع والخوف ، فالأدواء والأوباء والمنية .

وكان الشعراء لسانهم فى إعلان هذه الشكاية ، وفى وصف ما يعانونه من مضاعفات عدم الوفاء .

وفى عام ٦٩٣ هـ توقف النيل دون حد الوفاء ، فغلت الأسعار وشقى الناس بمضاعفات الغلاء . .

وفى العام التالى وهو عام ٦٩٤هـ أوفى النيل وكسر سده ، وبلغت زيادته ست عشرة ذراعا وسبع عشرة إصبعا . ثم هبط ولم يثبت . فغلت أسعار السلع ، واشتد الغلاء وأصبح فادحا ، وبلغ ثمن الإردب من القمح ثمانية مثاقيل ونصفا من الذهب ، وهو ما يساوى إذ ذاك مائة وسبعين درهما نقرة .

وقد نظم الشاعر شهاب الدين البزاغى فى ذلك قصيدة شاكية طويلة ، وصف فيها ما أصاب البلاد والناس من مضاعفات الجدب والغلاء ، يقول منها .

ولما غاضَ بحرُ النيلِ فاضتْ
دموعٌ من محاجرِهم سجامٌ
ومُدَّ به من الأمـوات سيـلٌ
لنقصِ عُبـابِه منـه تمامٌ

ويصف الزارعين وأرباب الصنائع والبضائع بقوله — وإن كان ضعيف النسج :

وبات الزارعون وخلفوا كل م ما زرعوا وفاتهم الصرام
وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام
وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام

ويصف الفرسان والأغنياء بقوله :

رى الفرسان تحسبهم رفاة
من الأجداث قبل البعث قاموا
تفطر منهم الأكباد جوعا
كأن الفطر عندهم صيام
وأما الأغنياء فقد أباحوا
حمى الأموال وانخرم النظام

ويستمر الشاعر فى شكواه حتى يذكر فى الخاتمة أهل مصر وصبرهم على جور الزمان ، ويدعو الله لهم أن يرضى عنهم ، فيجرى لهم النيل ، لأنه هو « السلام » يقول :

عسى الرحمن أن يرضى عليهم
ويجرى نيلهم فهو السلام

وفى عام ٧٠٩ هـ توقف النيل أيضاً عن بلوغ حد الوفاء فى ميعاده ، وارتفعت أصوات الشكاية .

وقد نظم الشاعر الأديب شهاب الدين محمود الحلبى أبياتاً طلية ، تمثل وجهة الشعب ، ووصف فيها بعض أحواله وما يعانيه .

وفى أبياته خاطب النيل وساءله عن جريانه ووفائه . أبأمر ربه يجرى ويفى ، أم بأمر من عند نفسه . فإذا كانت الأولى فليجر وليف . وإذا كانت الثانية فلا داعى للجرى ولا للوفاء . والله كفيل بأن يبسط بره فى البلاد كما بسطه ، فى بلاد غيرها ، لا يجرى النيل فيها .

وينطوى قول الشاعر على خفى من ألوان العتاب ومداعبة اللائم .

يقول الشاعر :

يأيها النيلُ المباركُ إنْ تَكُنْ
من عند ربِّك تجرِ فاجرِ بأمرِهِ
أوْ إن تكُنْ من عندِ نفسِكَ آتياً
فاللهُ يبسُطُ بِرَّه فى بَرِّهِ
كَمْ من بلادٍ لستَ تعرفُ أرْضَها
ملأَ الإلهُ بيُوتَها من بُرِّه .... الخ

وتتجلى فى الأبيات عقيدة إسلامية سليمة . وقد وضع دستوها العالى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فى كتابه الذى قيل إنه كتبه إلى النيل ، فى حالة مماثلة. وقد سبقت إشارتنا إليه .

شكوى من الشَّرَق والغلاء :

وفى عام ٨٥٤ هـ لم يف النيل ، فشرقت الأرض ، ووقع الغلاء وصرخت البلاد شاكية باكية . وقد نظم فى ذلك ، الأديب الكبير الشاعر شمس الدين النواجى ، أكثر من مقطوعة وقصيدة . ومن ذلك قصيدته التى مطلعها :

لربِّ العُلاَ نشكو أذى القحطِ والغَلاَ
وما مسَّنا فيه من الضُّرِّ والبَلاَ
ونسأله فى البأسِ واليأسِ والرَّجَا
رجاءً فَقَدْ مِتْنَا وعاجَلَنا البِلَى
غلاً أرخص الأرواحَ لمَّا تَسَعَّرَتْ
بمَوْرِ ضرامٍ فى صميمِ الحشا غَلَى

وأخذ الشاعر يصف مظاهر الغلاء وصفاً باكياً . ويذكر مظاهر الجدب ذكرا راثيا . فرحى الجدب دارت فى كل بلدة . ولم يعد هناك رجاء فى بر ، ولا أمل فى رى ، ولا ترقب لغيث ، ولا وفاء للنيل ، ولا ذيل ستر بالهنا يسبل . وبلغ الجدب حدا مزعجاً ، حتى شكا الأغنياء من الفقر والفاقة . فكيف بالفقير المعيل الباكى .

يقول الشاعر :

ودارَتْ رحاء الجدبِ فى كُلِّ بلدةٍ
وما تركَتْ للخِصْبِ فى مصرَ منزِلاَ

فلا بَرَّ بُرْجَى منــه بَرٌّ بِبُرِّه
ولا بَحْرَ رِىٌّ طابَ عذباً مسلسلاَ

ولا عينَ أرضٍ قد بكتْ فتفجرتْ
علينا ولا دمعٌ من الغيثِ أُهملاَ

ولم يتخلَّق بالوفا نيلُ مِصرِنا
ولا ذيلَ سترٍ بالهنا راحَ مُسْبَلاَ

ومُذْ غاضَ مقياسُ المُنَى ضاقَ عيشُنا
وأمحلَ ربعُ الأُنس والصبرُ ما حَلاَ

به الأغنيا يشــكون فقراً وفاقَةً
فــكيفَ بمَن أمسى مُعِيلاً ومُعْوِلاَ

واتجه الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى . وهو متجه كل كل ظامىء ، ومغنى كل مملق ، ومخصب كل مجدب . يرجوه

حنانه ورفقه . ويستسقيه غيثه وورده . ويستمطره رحمته وعونه، للناس وللحيوان الذى أصبح مهزولا بادى الكلى . . .

يقول الشاعر :

حنانًا حنانًا يا مغيثَ الورى فقدْ
يئسْنَا وكلُّ الخلقِ أصبحَ مُبْتَلَى

فما مُمْلِقٌ إلا إلى بابكَ التجَا
ولا معدمٌ إلا عليك توَكَّلاَ

وسقيًا ورعيا للمواشى فقد بَدَتْ
كُلاها وكلَّ السيرُ فى طلبِ الحَلَى

وإن تاه قومٌ بالغلا وترَفَّعُوا
علينا ومالُوا للقطيعة والقِلَى

فو الله لا نرجُو سواك ولا نَرَى
بيوم لهمْ فضلاً علينا ولاً ولاَ

إليكَ توسلْنا بجاهِ نَبِيِّنَا
فَمَا خابَ مَنْ أمْسَى به متوسِّلاَ

تسبيحة النواجى أو تغريدته :

وفى العام التالى ، وهو عام ٨٥٥ هـ ، وفى النيل كعادته ، فامتلأت القلوب بشرا والنفوس مسرة ، ورتلت المشاعر الشكر لله والحمد له على آلائه وأنعمه .

وقد بدا ذلك على لسان الأديب الشاعر شمس الدين النواجى نفسه ، صاحب الأبيات الشاكية التى تقدم ذكرها . فنظم قصيدة فريدة فى مشاعرها ، مليئة بالعاطفة ، جياشة بالشكر والثناء ، مزدحمة بمختلف الأحاسيس ، وصف النيل فيها بما شاءه صفاء نفسه ، من الأوصاف الكريمة . مما يحدونا إلى تسميتها بتسبيحة النواجى أو تغريدته أو ترنيمته . وهى خالصة لوجه النيل فى أكثر من خمسين بيتا .

لقد بدأها فحمد الله سبحانه وتعالى ، وبين سبب ذلك ، وهو أن الله تأذن للنيل فوافى ووفى . لأن فى وفائه الخير والبركة والبر ، وفيه الخصب والنماء والرخص والرخاء . ومما يضاعف الحمد ويكثر الثناء على الله تعالى ، أن هذا الوفاء جاء عقب نقصان العام المنصرم — عام ٨٥٤ هـ — الذى عانت البلاد من جرائه ما عانت . فأذهب الله عنها هذا العناء ، وبل غلة قلبها بهذا الوفاء .

يقول الشاعر :

الحمد لله وافى نيلنا ووفى
وبلّ غلّة قلبٍ كان قد نشفا

وها هو ذا ماء الحياة يعود منهمراً إلى الزرع ، جارياً فى مجاريه ، فياضا بأياديه ، وهو بها كلف وإليها دنف ، فيحيي موات الزرع على جانبيها ، ويعيد الحياة على ضفتيها ، ويجتث المحل ويقطع الجدب ، ويزيل السقام وينشر البرء والشفاء .

يقول الشاعر :

وعادَ ماء حَيَاةِ الزَّرْعِ مُنْهَمِرًا
إلى مجاريه فيَّاضًا بها كَلِفَا

نَعَمْ جَرَى الماءُ فى عُودِ الحياةِ وَدَبَّ
البَرْءُ فى السُّقْمِ ممْزوجًا بكلّ شِفَا

هذا النهر الكريم ، الطيب عنصره ، الرضى خبره ومخبره ، اللذيذ ريه ومرتشفه ، إنما يهمى ينبوع كوثره من الجنان . ومن الجنان تحدَّر مصدرُه ، وجوهرها يحدّث عنه جوهره .

يقول الشاعر :

مِنَ الجِنانِ هَمَى ينبوعُ كَوْثَرِهِ
يا طيبَ عُنصُرِهِ رِيًّا وَمُرْتَشَفَا

جَرَى عَلَى أَجْمَلِ العاداتِ مُنبسطاً
ولا توقف يوماً لا ولا وقفَا

وفى البيت الثانى يقظة عاطفية فذة نبيلة . لقد سجل الشاعر أن النيل جرى على أجمل عاداته . وأنه لم يتوقف . والعبارة فى قوله : « ولا توقف يوما » تحتمل العموم ، وهو الاحتمال الذى نفسرها به .

والمعنى أن النيل لم يتوقف قط ، لا فى هذا العام ولا فى أى عام آخر . لقد تناسى الشاعر — أو أنسى نفسه — فى نشوة الوفاء ، أن النيل لم يف فى العام الماضى، وأنه قال فى ذلك شعراً يشكو فيه عدم وفائه ، ويضج من مضاعفات ذلك .

وهكذا غفرت المحبة الذنب للمحبوب ، ونسيت فى ساعة الوفاء ما كان له من ذنوب . .

ويمثل النيل فى خيال الشاعر ، ملكا جاء ووافى لينظر فى أمر رعيته ، وليكشف عنها الضر ويدبر لها الخير فيقول :

كأنه ملك وافى لينظر فى

أمر الرعية إن ضرا رأى كشفا

وقد استعد لمقاتلة الجدب ودفع الضر ورفع الغلاء . فلبس جوشنا مزردا ، حاكته له كف الصبا ، وساق من خلفه جيشا عظيما لجبا من أمواجه ، زحف به على جيش الغلاء . وطاف به البلاد وجاب الأرض ، وهو يقتفى أثر الغلاء فى كل مكان ، لكى يمحوه ، ولكى يصلح ما أتلفه . وكأنما يتحرى المواقع التى تحتاج إلى سقى فيسقيها ، والمعاهد التى تشرئب إلى الرى فيرويها .

يقول الشاعر :

حاكَتْ لِجَوْشَنِهِ كَفُّ الصَّبَا زَرَدًا

بجيشِ مَوْجٍ عَلَى جَيْشِ الفَلاَ زَحَفَا

طافَ البلادَ وجابَ الأرضَ مُقْتَفِياً

آثارَهُ يَتَلاَفَى منهُ مَا تَلفَا

كأنما يَتَحَـرَّى فى تعهُّدِهِ

مواقعَ السَّقْيِ أنَّى سارَ أو عَـكَفَا

والأدلة على تحريه مواقع السقى ، ما تراه بصعيد مصر ، — فكم به من منية يممها فيه — وماتراه به من فلك جوار عليه فى أسنى مطالعها ، وماتراه من بحر يوسف الذى أبدى أحسن منظره فى « ألف يوم » ، وما تراه بحلوان لمـّا أهدى إليها حلاوته ، فجذبت إليها أهل الشوق والمدنفين إلى اللقاء .

يقول الشاعر .

كَمْ مُنيةٍ مِنْ صعيدِ الأرضِ يَمَّمَهَا
بالمسحِ منْ وَجْهِها القبلىِّ ما انـكَشَفَا

بَاهَى بها الفلكُ فى أسنَى مَطاَلِعِها
جوارياً ذاتَ ألواحٍ تَلَتْ صُحُفاَ

وبحرُ يوسُفَ أبدَى حسنَ مَنْظَرِهِ
بالصبِّ فى ألفِ يَوْمٍ قد صفاَ وَصَفاَ

ومنـذُ أهدَى بحلوانٍ حـلاوَتَه
راقَتْ ببـالِ مشوقٍ للِّقاَ دَنِفاَ

واستمر الشاعر واستمرت عاطفته وخياله ، فى إبراز هذه المحاسن والصفات ، التى اتسم بهـا هذا النيل الوافى الجرىء ،

الذى ماشاب مفرقه من هرم ، ولا رجف قلبُه من هول . وجاء ركضا وسيم الوجه رئيفا شافيا منحدراً من أعلى الصعيد ، يقذف إلى الورى أرزاقها ، حتى ضرب الفسطاط ، وانعطف حول المقياس ، فدقت البشائر بقدومه ، وأشير إليه بالأصابع ، بل بفيض من فضل أياديه ..

يقول الشاعر :

ما شَابَ مفرِقُهُ الميمونُ من هَرَمٍ
ولا أبو الهولِ منه قلْبُه رَجَفَا

بلْ جاء ركضاً وسيمَ الوجهِ يسبحُ فى
تَيَّارِهِ وعلى التكرورِ كم رأفَا

قد زِيدَ فى حَرْثِهِ فانسابَ منطلقاً
فَدَّانُه وسَقَى ماءَ الحيا وشفى

وافَى بمَفْرَدِهِ منْ قوصَ مُنْحَدِراً
فى كِلَّةٍ وبأرزاقِ الورى قَذَفَا

مُخَلِّقاً لعمودِ الصبحِ قد ضربَ الـ
ـفُسْطَاطَ حينَ رأى المقياسَ وانعطفَا

دَقَّتْ بشائرُه فى مصر وانتشرتْ

راياتُه بقلوعٍ آذنت بِوَفاَ

وافَى يُشارُ إليه بالأصابِعِ بلْ

بفيضِ فضلِ أيادٍ عهدُها سَلَفاَ

أرْخَى عَلَى الناسِ سِتْرَ العدلِ فانتشرُوا

فى رَوْضةٍ من شَذَاها أصبحتْ أُنُفاَ

وامتدت مياه النيل ، ودارت حول سوق الأشجار ، فطوقتها خلاخيل ، وغذتها فبدا عليها من طلعتها تحف من القلائد . والنبت كان فى وحشة إليه . والأرض تحلت بحلل من أياديه ، ولبست شنفا من قرطه . وأصبحت الأرض بسعة مياهه فيها ، وانتشارها على سطحها ، تحكى السماء . بينما أصبحت السماء نفسها تحكيه — تحكى ماءه بانتشاره فوق سطح الأرض — بما فيها من أنجم وبروج . فكلاهما جرت فيه الأفلاك . وكأنما النيل مرآة مصقولة ، حليت بالصقل ، وصفت كما صفا . .

يقول الشاعر :

صيغتْ خلاخيلُ للأشجارِ منه ومِنْ

قلائدِ الطلْعِ حَلَّى جيدَها تُحَفاَ

واستوحَشَ النبتُ حتى الأرضُ فى حُللٍ
تُجلَى ومن قُرطِهِ قد أُلبِستْ شَنَفاَ
تحكى السماءَ وتحكيه حُلىً وعُلىً
وأنْجماً وبُرُوجاً كَمْ حَوَتْ شَرَفاَ
كِلاَهما جَرَتِ الأفلاكُ فيه وقد
حَفَّتْ بحَافَتِهِ الأملاكُ فائتَلَفاَ
كأنما هو مرآةٌ لهـا جُلِيَتْ
بالصَّقْلِ أو هى مرآةٌ صَفَتْ وصَفاَ

واستمر الشاعر فى تغريدته ، يحدث عن النيل وفضله ، وعن مائه وكرمه ، وعن جماله ومشاهده ، فى أبيات على نمط مما أوردناه من هذه القصيدة الفريدة . حتى رآه قد رق طبعا ، وإنه ليؤثر فى قلب الحجر .

قدْ رَقَّ طَبْعاً فما أحْلَى زوائدَهُ
فى الذوقِ لو مرَّ فى قلْب الصفا لَطُفاَ

ولفظ « لطفا » يحتمل أن يكون من اللطف أو الطفو وعلى أى التقديرين فمعناه جميل .

ولا يقيس الشاعر به ابن ماء السماء ولا ابن زائدة ولا أبادلف، أولئك الكرام الذين عرفوا بالجود واشتهروا بالسماح ، هم فى رأيه قطرة منه .

يقول الشاعر

فما ابنُ ماءِ سماءٍ وابنُ زائدةٍ
وقاتلُ المحلِ جُوداً أو أبو دُلَفَا
إلاّ كقطرةِ ماءٍ منه قد قَطَرَتْ
بل كلُّهم من نَدَى راحاتِهِ اغْتَرَفَا

وتأسر الشاعر عقيدته الإسلامية مرة أخرى ، فيرى أنه لو لم يكن للنيل من مفخرة إلا أنه جرى ليروى آثار النبى ، لكفاه بذلك فخراً . وهكذا تتدخل العقيدة فتوجه الشاعر نحو ما يريده من التورية اللطيفة المداعبة فى لفظ « آثار النبى » . فإن الشاعر — على ما نرى — يقصد به ، المكان المعروف جهة الفسطاط ..

يقول الشاعر :

لو لَمْ يكُنْ فِى سُرَاهُ مِنْ أقَاصِى أُسْـ
ـوانٍ وقوصٍ إلى أنْ عادَ وانصرفَا

إلاَّ ليروى آثارَ النبيِّ ومَنْ

رَوَى الورى بِغَوَادِي كَفِّه لـكَـفِي

واستمر الشاعر فى ملابسات لفظه هذا ، فقال مرفها عن عاطفته الدينية ، ومشبعاً لها :

محمدٌّ صاحبِ الحوضِ الروِيِّ إذَا

ما جاءه الواردُ الظمآنُ مُلتَهِفَـا

مَنْ نالَ منهُ شراباً فى القيامةِ لمْ

يظمأْ وصادفَ ريًّا فيـه كلُّ شِفَا

مِنْ نِيلِ مَنهَـلِهِ كمْ راحَ مُغْترفاً

ظامٍ وبالفضلِ منه جاء مُعْتَرِفَا

وتلمس ظرف الشاعر ولطف حسه ودقة تخيره لألفاظه فى هذه الأبيات الثلاثة . فقد تخيرها — وهو يتحدث عن رسول الله صلى عليه وسلم — من وادى «المياه» لمناسبة حديثه عن النيل.

وسار الشاعر فى روحانيته هذه ، حتى اتجه بجمع نفسه إلى الله سبحانه وتعالى « منزل الغيث » ، أن يدفع عن مصر الغلاء وينشر الرخاء ، ويدرك بها أمته الضعيفة ، بمغفرته وحنانه

ورحمته ، خاتماً تسبيحته الطلية الرقيقة الخالصة ، بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول الشاعر :

يا مُنْزِلَ الغيثِ فضلاً بعد ما قَنِطُوا
وناشرَ الرحمةِ العظمى بحُسْنِ وَفا

ارفَعْ بِحَقِّكَ عن مصرَ الغَلاَ وقِنَا
صعيدَ نارٍ بها ربعُ الرخاءِ عَفَا

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ داركْنَا بمغفرةٍ
وجُدْ حَنَانَيْكَ وارحمْ أمةً ضَعُفَا

وصَلِّ أزكَى صلاةٍ والسلامُ على
نبيِّكَ المصطفى الراقِي الذُّرَا شَرَفَا

ما انهلَّ في الجدبِ غيثٌ قد طغى فَجَنَى
أيانِعَ الزهرِ كف الخصبِ واقْتَطَفَا

هكذا اختتم الشاعر تسبيحته بملائمات النيل ، مثل : انهل والغيث وجنى ، وأيانع الزهر ، والخصب ، والاقتطاف . وهى توحى إليك بمقدار ما خالط نفسه من النيل ومشاهده .

وبعد ، فلعل هذه القصيدة تقنع الكثيرين ممن يتجنون على شعراء هذا العصر ، ويتهمونهم بانصراف نفوسهم عما ينبغى لها من عواطف ومشاعر نحو نيل بلادهم المبارك ، وبضيق تعبيرهم عنها إذا عرضت لهم ، وبتلهيهم دون وصفه ، بالصناعة اللفظية .

وقد بلغ حب النيل من نفس الشاعر الكبير الشهاب المنصورى ، أنه اتجه فى وصفه للنيل اتجاه العاشق الغزل ، الذى تشبب فى معشوقه .

انظر إليه وقد ألغز فى « النيل » فقال فى أبياته :

حلوُ اللَّمَى أحببتُ من إدباره
مثلَ الذى أحببتُ منْ إقباله

حَسَنُ الشمائلِ لا يُملُّ وصالُهُ
أبداً ومَنْ لمُحِبِّه بوِصَالِهِ

طلقُ المحيَّا إنْ بدا مُتَبَسِّماً
قرَّتْ عيونُ نِسَائِهِ ورجالِهِ

فى كلِّ وقتٍ يُشْتَهَى لا سيَّما
فى حال بُكْرَتِهِ وفى آصالِهِ

قطعُ الطريقِ أقلُّ ما يُعْزَى له

والناسُ تشكُرُه على أفْعَالِهِ

ومِنَ العجيبِ العجزُ عنْ إمساكِهِ

مَعْ لِينِ جانِبِهِ وقربِ منالِهِ

وكثيراً ما يمزج الشعراء حين تغنيهم بمصر وحب مصر ، بينها وبين النيل ، فيمتزج الحبان ويختلط العشقان ، وتتصل بذلك عجائب مصر بعجائب النيل فى تصور الشعراء .

ويقول صلاح الدين الصفدى :

رَأَيْتُ فى أرضِ مِصْرٍ مُذْ حَلَلْتُ بِهَا

عجائباً ما رآها النـاسُ فى جيلِ

تَسْوَدُّ فى عَيْنِيَ الدنيا فلَمْ أَرَهَا

تَبْيَضُّ إلاَّ إذا ما كُنْتُ فى النيلِ

وهكذا يرى الشاعر أن الدنيا تسود فى عينيه ، فى كل ناحية من نواحيها يرحل إليها ، ولا تبيض إلا إذا ما كان فى أرض النيل ، مصر الرحبة الكريمة السمحة .

وأعتقد أن الشاعر يرمز بالسواد والبياض ، إلى الجدب

والخصب ، أوضيق العيش وسعته ، أوعبوسة اللقاء والفرحة به .

وزين الدين بن الوردى ، يرى أن مصر هى الدنيا ، وأن ساكنيها هم الناس، وأن مصر مقدمة يشرحها نهر النيل ، ويوضح مزاياها وما أجمل فيها . يقول مفضلا مصر والنيل على بغداد ودجلة :

دِيارُ مِصْرَ هِيَ الدُّنْيَا وساكِنُها
هُمُ الأنامُ فقَابِلْهَا بتقبيلِ

يا منْ يُباهِي ببغدادٍ ودِجلَتِها
مصرٌ مقدِّمَةٌ والشرحُ للنيلِ

ويتشوق علاء الدين الوداعى إلى مصر وسكانها وعهدها الخالى . ويستروى الأحاديث عن نيلها ريا لشوقه ، وسقيا لوجده فيقول :

روِّ بمصرٍ وبسُكَّانِها شوقى وجَدِّدْ عهدِيَ الخالِي
وِصفْ لِيَ القُرْطَ وشَنِّفْ به سَمْعِي وما العاطلُ كالحالِي
وارْوِ لنا يا سعدُ عنْ نِيلِها حديثَ صفوانَ بنِ عسَّالِ

وانظر إلى اختياره فى البيت الأخير ، وهو يتحدث عن النيل ، لفظى « صفوان » و « عسال » .

* * *

وشاعر مصر الكبير — حينذاك — جمال الدين بن نباتة ، كان قد فارقها إلى ربوع الشام ، فالتهب الشوق نفسه ، وصار يتغنى بها وبنيلها ، الذى يخصب الثرى ، ويغنى الورى ، ويقتل المحل .

يقول الشاعر :

وَإِنِّى لمشتاق إِلَى ظِلِّ رَوْضَةٍ

على النيلِ أَرْوِى العيشَ منها عن النَّضْرِ

لَئِنْ حَثَّنِى بابُ البريدِ إلى مصرٍ

لقد حثَّنى بابُ الزيادةِ فى النَّذْرِ

إلى مصرَ يحلو نِيلُها مُخْصِبُ الثَّرى

فيُغنِى الورى فى الحالتين عن القَطْرِ

ويصرح تقى الدين المقريزى فى أبيات وصف فيها مدينة دمياط ، وما حولها من مياه جارية وزروع زاهية ، وصدى مناظرها فى نفسه ومشاعره ، بأن النيل « المقدس » ، وبأن النزهة فى شاطئه تعيد إلى الشيب شبابه وعيشه الرغد . يقول :

وفى شاطِئِ النيلِ المقدسِ نزهةٌ

تعيدُ شبابَ الشيبِ فى عيشه الرغْدِ

وتُنْشِي رياحاً تطردُ الهمَّ والأَسَى
وتُدْنِي ليالِي الوصلِ من طيبها عندى

وكان الشاعر قد زار دمياط ، ويبدو أن ذلك كان فى إبان فيضان النيل . فلم يفته هذا المنظر الرائع المعجب ، وهو منظر التقاء النيل الطاغى وتياره المتدفق ، بالبحر اللجب الصاخب ، فسجله فى أبياته ، وندر من سجله ووصفه من الشعراء .

يقول الشاعر :

كأنَّ التقاءَ النيلِ بالبحرِ إذْ غدَا
مليكانِ سارا فى الجحافلِ من جُنْدِ
وقد نزلاَ للحربِ واحتدمَ اللقَا
ولا طعنَ إلاَّ بالمُثَقَّفَةِ المُلْدِ
فَظلاَّ كمَا بَاتَا وما بَرِحَا كمَا
هما من جليلِ الخطبِ فى أعظمِ الجَهْدِ

وتغنى الشعراء بجزر النيل وبخاصة جزيرة الروضة ، إذ كانت مفترجا نضرا من مفترجات مصر ، وتقوم فى وسط النيل بين الفسطاط والجيزة ، وتدور من حولها سفن المرتاضين

والعشاق ، يقصدون منازلها أو يطوفون حول المقياس .

وقيل إن الشاعر المتصوف سيدى محمد بن وفا ، كان يسكن فى جزيرة الروضة ويألفها كثيراً . فأضفى عليها من روحانياته وصوفيته ، جملة من المعانى ، وتصورها بإدراكه الخاص . وضمن ذلك أبياتا من شعره ، ذكر فيها جملة من مناظرها ، ووصف الماء من حولها وزوارقه .

وقد عدها نعمة من نعم الله التى يشكر عليها سبحانه وتعالى ، قال :

رأيتُ رياضَ القُدْسِ فى روضةِ الرِّضَا
على نيلِ مصرٍ بينَ تلك المناظِرِ
منــاظِرُها للناظــرين مشارقٌ
وفيها وجوه كالبدورِ البوادِرِ

ويقول :

وتحــكِى طيوراً عالياتٍ رُءوسُها
على النيلِ فيها سابحاتُ الشخاتِرِ
ويُشْبهُ سيبُ المــاءِ فيها صوارماً
بأيدى الهنا سُلَّتْ لسلْبِ النواظِرِ

عليها جـلالُ اللهِ جـلَّ جلالُه

وفيها سريرُ السرِّ بينَ السرائرِ

ويزهو بدر الدين البشتكي بمصر بسبب وجود النيل فيها ، ويترنم بهما وبالروضة والمقياس . فيقول :

انظرْ إلى مقياسِ مصرَ وغَنِّ لي

من روضةِ المعشوقِ فى عشاقِ

وافخرْ بمصرَ على البلاد فنيلُها

يقضِى على الأوصافِ باستغراقِ

وتخلْخَلَتْ منهُ الغصونُ ومذْعَلاَ

دارتْ دوائِرُهُ على الأسواقِ

للهِ فى أُفقِ الجـزيرةِ ملعبٌ

كانَتْ نجومُ السعدِ فيه رفاقِى

حيث الصَّبا تُصبى اللبيبَ لأنها

تُمـلى عليـه مصارعَ العشاقِ

تتعانقُ الأغصان معْ إصغَائِها

لسماعِ نَوْحِ الوُرْقِ فى الأوراقِ

فتَرَى بأُذْنِ العـارفين تجاهُلاً

أمقامُ وصـل أم مقـامُ فِراقِ

ويتجول ابن أبى حجلة المغربى فى جزيرة الروضة ، فيرى سماءها غائمة ، ويرى غيمها ندًّا ، ونداها يكسو خمائل السندس ، والسفن من حولها تقبل وهى كالعرائس ، والجوارى الكنس .

يقول الشاعر :

أَوَ مَاتَرَى غَيْمَ السماءِ كأنَّهُ

نَدٌّ يلُوحُ لنـا بأفقِ المجلسِ

والروضةُ الفيحاء باكَرَها النَّدى

وكسا خمائِلَها رياضَ السندسِ

والسفنُ تبـدُو كالعرائسِ حولها

قد أقبلتْ مثلَ الجوارِي الكُنَّسِ

ويؤلف ابن أبى حجلة ، مهرجانا راقصا فى النيل ، يشترك فى إحيائه آلاف روضته ومقياسه ، ويعكس خواطره ومشاعره على المهرجان ، فيشيع فيه الفرح والبهجة . فهذه ورقاء تغنى على عيدانها وتشدو بألحانها . وهذا الطل كالدر قد تناثر عقده ،

والتأم من حباته تيجان رصعت رءوس الزهر ، بينما برز البحر — النيل — فى برده ، وقد رقت حواشيه وصقلته الريح ، فكأنما تهيئه وتجلوه عرسا ...

يقول الشاعر :

وكأننا فى رَوْضَةِ المقياسِ والـ
وَرْقاء قَدْ غَنَّتْ على العيدانِ

وشَدَتْ بلَحْنٍ مُعْرَبٍ فاعجبْ لها
أرأيْتَ أعجمَ مُعْرِبَ الألحانِ

فالطَّلُّ دُرٌّ قَدْ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ
والزَّهْرُ منه مُرَصَّعُ التيجانِ

والبحرُ قد رقَّتْ حَوَاشِى بُرْدِهِ
والريحُ تصقُلُه بغيرِ توانِ

ويطوف الشاعر الأديب عز الدين الموصلى بالروضة ، طواف العاشق ، فتبهره مجاليها ، وتأسره مرائيها ، فيرى فى صفحاتها آيات الجمال . لقد نقشت أرضها إبر الحيا ، وطرزتها . ودارت أشجار السرو من حولها كالسوار أو الخلخال. بينما سور الأشجار سلسل دار حول سوقها مطلقا كأنه الأسير . وغياضها

مدبجة بادية الألوان . وأغصانها الند ، وأوراقها السندس . وأزهارها الياقوت والبلور ، أو الدراهم بين الدنانير . وظلها ثوب يجمعه النسيم تارة ، ويفرقه تارة . وهى إنما تعيش بهذه المحاسن الفاتنة فى حمى النهر الذى يزيد ويفى ، والذى يؤذن بالخصب ، ويجتث الجدب ، كأنه الصارم المشهور ، وفى سبيل الله ما يفعل ...

يقول الموصلى :

وروْضةٍ نقشتْها لِلْحَيا إبَرٌ
فأصبحتْ بين تطريزٍ وتزهيرِ

مثلُ السِّوارِ لها سَرْوٌ أحاطَ بها
مِنْ سلسلٍ هى منه ذات تسويرِ

أو كالخلاخيلِ للأدواح دار على
سوقٍ لها مطلقاً فى زِيِّ مأسورِ

تحت الرياضِ غياضٌ دُبِّجتْ فبَدَتْ
ألوانُها ذاتَ تشهيرٍ وتشذيرِ

أغصانها الندُّ والأوراقُ سندسُه
والزهْرُ عرَّقَ ياقوتاً ببلُّورِ

والزهْرُ بينَ شُعَاعِ الشَّمْسِ تحسَبُهُ
دَرَاهِماً نثِرَتْ بينَ الدنانيرِ

والطَّلُّ ثوبٌ إذا مرَّ النسيمُ به
فالرَّوْضُ ما بينَ مهتوكٍ ومستورِ

ونهرُها زائدٌ بالخصبِ يُؤْذِنُنَا
كصارمٍ فى سبيلِ اللهِ مشهورِ

ويجمع ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن سلار ، بين مصر والروضة والنيل ، فجمع بين الأحباء الثلاثة . أو بين المحبوبين الثلاثة . ويرى أن مصر هى الجنة العليا ، وأن الروضة هى الفردوس . وأن النيل هو الكوثر . يقول .

لعمرُكَ ما مصرُ بمصرٍ وإنما
هىَ الجنةُ العُلْيَا لمنْ يتفكر

فأولادُها الوِلدانُ من نسل آدمٍ
وروضتُها الفردوس والنيلُ كوثرُ

ويتشوق شهاب الدين بن حجر العسقلانى إلى مصر ، وهو

فى طريقه إلى الحج ، فيذكرها ذكر العاشق الواله ، ويدفعه الزهو بها إلى وصف مفاتنها التى صارت موضعا ومصدرا لحسادها ، ويذكر أنه إذ فاخرها قادح أو عائب حاسد ، انبرى صارم نيلها وكسر كل نخار ...

يقول ابن حجر عن مصر :

تهبُّ نسيماتُ الشمالِ بأرضِهَا
فينشَقُ منها الأنفُ جُونَةَ عَطَّارِ

مُحَسَّدَةٌ لا قَدْحَ فيها لعائِبٍ
على أنَّ زَندَ الفضلِ مِنْ أهلِها وارِى

إذا فاخَرُوها قامَ صارمُ نيلِهَا
بمقياسِ صدقٍ كاسراً كلَّ فخارِ

مراتِعُ لذَّاتِى ومَلْهَى شبيبتى
ومبدأُ أوطانِى وغايةُ أوطارِى

ويستشفع جمال الدين بن نباتة بدموع شوقه ، ليعود إلى مصر لكى يروى ظمأه من النيل فيقول :

وهلْ إلى أرضِ مصرٍ زورةٌ لِشَجٍ
بِسَائِلٍ من دموعِ الشوق ملحاحِ

وهلْ أباكرُ بحرَ النيلِ مُنشرِحاً
فأشْرَبَ الحلوَ منْ أكوابِ مَلاَّحِ

وشهد الشاعر المبدع فخر الدين بن مكانس ، سرحة جميلة وارقة الظلال ، قائمة على شاطىء النيل ، مائلة نحوه ، فشهد فيهما عاشقين اجتمع شملهما ، واكتمل محفلها ، وطالت بينهما المناجاة والمسامرة ، والمواصلة والمجاورة ، فهزته قصتهما ، ونهضت نفسه إلى تسجيلها فى قصيدته البارعة « سرحة النيل » وبدأها بقوله :

يا سرحةَ الشاطىءِ المنسابِ كوثَرُهُ
عَلَى اليواقيتِ فى أشكالِ حصباءِ
حلَّتْ عليكِ عزَاليها السحابُ إذَا
نَوْءُ الثريا استَهَلَّتْ ذاتَ أنواءِ
وإنْ تَبَسَّمَ فيكِ النَّوْرُ مِنْ جَذَلٍ
سقاكِ مِنْ كُلِّ غيمٍ كُلُّ بَكَّاءِ

وانساب الشاعر بمشاعره ، فى وصف السرحة الجميلة ، التى

سرحت بخياله فى آفاق من التصورات البديعة ، التى غذاها النيل بأفضاله وآياديه ، وقومها بأوصافه ومجاليه ، وأيدها بالرائع من محاسنه ، والجامع من مفاتنه ، فامتزجت فى خواطر الشاعر حسياته ومعنوياته .

ورأى الشاعر السرحة ، وقد مالت على النهر ، فحسبها تميل لتصغى إلى مناجاة خريره . وشهد النيل مرآة تدهش بحسنها ولألائها ؛ وقد راق شاطئه غب القطار ؛ فأزرى بنهر الأبلة .
وحركته يد النسيم فصقلت صفحته فبدا كسيف مجلو . .

يقول ابن مكانس :

مالَتْ عَلَى النهرِ إذْ جَاشَ الخريرُ بِهِ
كأنّهَا أُذُنٌ مالتْ لإصْغَاءِ
كأنما النهرُ مِرآةٌ وقدْ عكَفَتْ
عليه تُدْهِشُ فى حُسْنٍ ولألاَءِ
ذو شاطِئٍ راقَ غِبَّ القَطْرِ فهو عَلَى
نهرِ الأُبُلَّةِ يُزْرِى أىَّ إزْرَاءِ
كأنّهُ عنـدَ تحريكِ النسيمِ لَهُ
فِرِنْدُ سَيفٍ نَضَتْهُ كفُّ جَلاَّءِ

وعرض الشاعر لكثير من ملابسات السرحة والنيل . فذكر خطاب ظلها وأحباب ناديها . وقد برئت قلوبهم فى رحابها من الحقد ، وخلصت من الشحناء ، فلم يعد لهم رابطة إلا الود ، ولا جامع إلا اللهو ، الذى لا مكر فيه ، والمجون الذى لاندم بعده.

يقول الشاعر :

باكرتُها فى سَرَاةٍ مِنْ أصَاحِبِها
لا ينطَوُون على حقدٍ وشحناءِ
يُداعِبُون بمَعْنَى شِعْرِهِمْ فَأَرَوْا
وُدَّ الأَحبةِ فى ألفاظِ أعداءِ
من كُلِّ شيخٍ مُجُونٍ فى شَبَابِ فَتىً
يقرِى المجونَ بقلْبٍ غيرِ نساءِ
يسعَى إليها على جرداءَ جَاريةٍ
من آلِها كهلالِ الأمنِ حدباءِ

وهكذا انتقل الشاعر ببيته الأخير، انتقالا لطيفاً إلى وصف السفينه ، يركبها الأحباب المرتاضون فى أمانة النهر وحراسة تياره وهى فى مسيرها فوق سطحه مثل « هلال الأمن » لا « هلال

الشك » . لذلك استسلم فى أحضانها اللاهون للمجون استسلام المؤمن لقدره ، فى وداعة ورضا واطمئنان .

وهى « نوحية الصنع » و « نوحية الإحكام» لقدمها ودقتها وبركتها ومرانتها على إيصال راكبيها إلى مكان الأمان والنجاة ، دون أن يعتريها إعياء .

وقد بدت فى سوادها على سطح « الماء المصندل » كشامة على شفة لعساء ، كالشهد .والشامة حلوة جميلة، وأحلى منهاوأجمل، الشفة اللعساء ، التى هى كالشهد حلاوة وقبولا .

يقول الشاعر :

نوحيةُ الصنعِ والإحكامِ مُنشَأةٌ
تَسِيرُ مَا سُيِّرتْ منْ غيرِ إعيـاءِ

سوداء تحكى على الماءِ المصندلِ شا
مةً على شفةٍ كالشُّهْدِ لعساءِ . . الخ

* * *

وبعد ، فيضيق نطاق هذه العجالة ، إذا ذهبنا نسوق النصوص الدالة على مدى اهتمام شعراء مصر ، فى هذه الحقبة ، بالنيل ومايتصل به . وعلى مدى حبهم وتقديسهم له ، والتفات خواطرهم إليه ، وامتزاج نفوسهم به . فحسبنا ما سجلناه .

* * *

ونستطيع بالرجوع إلى ماسجلناه من النصوص ، أن نجمل ما حوته من أوصاف النيـــل ونعوته وتشبيهاته ، وأوصاف ما يتصل به ، فيما يأتي :

١ — أوصاف تدل على التقديس والتقدير والمحبة والإعجاب :

وصفوه بالمقدس والمبارك والسعيد والمقبل . وأنه الكوثر الذى يهمى ينبوعه من الجنان . وأنه السلام .

وأنه محبوب جبلت القلوب على حبه . ومحبوب فى إقباله وإدباره. ودعوا ألا يُبتَعَد عن شاطئه . وأن وصاله لا يمل لأنه محبوب . وأنه يشتهى فى كل وقت .

وأنه لين الجانب وقريب المنال . وطلق المحيا تقر العيون بابتسامته :وأنه حلو اللمى. وأنه يفى بوعده وأنه وسيم الوجه وأن نشره العطر أطيب من روائح الشباب . وأن رياحه الطيبة تطرد الأسى وتنسى ليالى الوصل .

وأنه حسن الوفاء يبل غلة قلب الصادى . وأن عدم وفائه يُجرى الدموع من المحاجر . وأن وفاءه تدق له البشائر فى مصر. وأن وفاءه يفرق الهم ويقتسم الأحزان . وأن وفاءه ستر العدل على الناس .

وأنه أكرم من ابن ماء السماء وابن زائدة وأبى دلف

العجلى — وهم من مشاهير كرماء العرب — وأنهم إنما اغترفوا من ندى راحاته . وأنه يجرى بأرزاق العباد .

وأن محاسنه لا تحصى ومنها المسموع والمنظور ، وأن شيمه ظاهرة الحسن طاهرة الأوصاف ، وأنه ذو عجائب كثيرة لا تخفى على ذوى الفضل .

أن محاسنه لاتباريه فيها جداول الشام ولا أنهار العراق ، وأنه يزرى بنهر الأبلة .

وأنه حصن لمصر وسور عليها ، وأن عيش البرية يصفو بكدر مائه .

وأنه عاشق الروضة . وأنه عروس لها وهى عرس له .

٢ — أوصاف توضح عمله ومحاسنه بتصوير شاعرى مشخص .

قالوا إنه : خضب الأرض بخضابه ، وشيب فودها بأزهاره، وإنه ذو كيميائية تحيل الترب من ذوب اللجين إلى الذهب . — وكان من أمنياتهم تحويل الفضة إلى ذهب ، فلم يستطيعوه —

وأنه بلغ الهرم — الأهرام — وهو ابن ستة عشر . وأنه على الرغم من طول عمره وكبر سنه، لم يعل الشيب مفرقه ولم يلحقه هرم .

وأنه يشنف سمع الأرض بالقرط . ويحلى جيد الروض

بالزهر — وأنه راقص مبتهج يعيش من حسنه في عجب وطرب . ومغن يشدو بلا صخب . والنسيم يداعبه من خلال الروض بالقضب . وأن شاطئه دف تدق عليه أمواجه الشادية . وأنه راوية يروى حديثاً مسلسلا .

وأنه ذو فهم ولب وإرادة . وأنه مطيع كيس يأتى وقت الحاجة إليه ، ويمضى عند الاستغناء عنه .

وأن ماءه سكرى المذاق يروق لإخوان الصفاء مكررا . وأن أكدار مائه مستحلاة . وأن حببه الطافى معلول بالراح . وأن تياره كالشفة اللعساء الحلوة كالشهد . وأن ماءه يؤثر وأن فى مائه صندلا مذابا فى قلب الصخر فيخف ويلطف . وأن طينه مسك . وأن لونه بين مورد ومصندل . وأن فى مائه صندلا مذابا . وأن ماءه خمر حل شربها . . وأن حصاه وجنادله تفخر على النجوم والشهب .

وأنه ضمخ الأرض بمائه المصندل لما رأى بها شقيقه ، تكريماً له . وأنه جواد أغر محجل ، وأن أصابعه وأذرعه أياد كريمة . وأن وفاءه تنشره رايات القلوع ، وتعلنه الأصابع .

وأن أمواجه صوارم تقتل المحل . وأن الصبا جعدت سطحه فصار كأنه سراويل من نسج داود تصلح للهيجاء . وأنه مرآة مصقولة ، فحكى السماء ، أو حكته السماء بأنجمها وأبراجها .

وأنه ملك وافى لينظر فى أمر رعيته ، ليكشف عنها الضر .

٣ — أوصاف ما يتصل به من الأشياء والمناظر :

أن زوارقه وسفنه عرائس وجوار كنس . وأنها غادات ومراسيها شنوف أو مراسيل . وأن سفنه نوحية الصنع والإحكام . وأنها حدباء كهلال الأمن — لا الشك — وأنها تسير بالمرتاضين فى غير ملل ولا إعياء . وأنها شامات على شفة تياره . وأن كل جارية عليه خود طائعة تلقاك محلولة الإزار . .

وأن أمواجه تتراقص ، وجواريه تدور على رجل .

وأن أسماكه فضة مما جمد من ذوب مائه .

وأن الروضة غانية شغلت قلبه بمحاسنها .

وأن الملاح بجانبه تبدو جميلة كأنها البساتين ، للعيون فيها مناظر . فقدودها أغصان بان . وعيونها أزهار نرجس ، وخدودها ورود عطرة .

* * *

وبعد ، فهذه صبابة من كأس ، وشعاع من شمس . فلعلها تروى الغلة وتضىء السبيل :

دكتور

محمود رزق سليم

المكتبة الثقافية
تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية ...	للأستاذ على ادهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيي حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١١	— المريخ	للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى
١٢	— فن الشعر	للدكتور محمد مندور
١٣	— الاقتصاد السياسى	للأستاذ احمد محمد عبد الخالق
١٤	— الصحافة المصرية	للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥	— التخطيط القومى	للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦	— اتجاهنا فلسفة خلقية	للدكتور ثروت عكاشة
١٧	— اشتراكية بلدنا	للأستاذ عبد المنعم الصاوى

٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... للمستشار عبد الرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للاستاذ محمد مفيد الشوباشى
٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥ — صراع على ارض الميعاد ... للاستاذ محمد عطا
٤٦ — رواد الوعى الإنسانى ... للدكتور عثمان أمين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال نوح
٤٨ — أضواء على قاع البحر ... للدكتور أنور عبد العليم
٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للاستاذ سعد الخادم
٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٥١ — الفلك والحياة ... للدكتور عبد الحميد سماحة والدكتور عدلى سلامة
٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ... للدكتور زكى المحاسنى
٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤ — قصة التفسير ... ... للاستاذ أحمد الشرباصى
٥٥ — القرآن وعلم النفس ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٥٦ — جامع السلطان حسن وما حوله للأستاذ حسن عبد الوهاب
٥٧ — الأسرة فى المجتمع العربى بين الشريعة الإسلامية والقانون للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى
٥٨ — بلاد النوبة ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٥٩ — غزو الفضاء ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٦٠ — الشعر الشعبى العربى ... ... للدكتور حسين نصار
٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه للدكتور جمال محمد محرز
٦٢ — الميكروبات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
٦٣ — عالم الأفلاك ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... للدكتور عبد العزيز رفاعى

٦٥ — الثورة الاشتراكية «قضايا ومناقشات» للاستاذ احمد بهاء الدين

٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للاستاذ لطفى الخولى

٦٧ — عالم الطير فى مصر ... ... للاستاذ أحمد محمد عبدالخالق

٦٨ — قصة كوكب ... ... للدكتور محمد يوسف موسى

٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٧٠ — القاهرة القديمة واحياؤها ... للدكتورة سعاد ماهر

٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء الأستاذ محرم كمال

٧٢ — قرطبة فى التاريخ الإسلامى للأستاذ محمد محمد صبح والدكتور جودة هلال

٧٣ — الوطن فى الأدب العربى ... للأستاذ إبراهيم الابيارى

٧٤ — فلسفة الجمال ... ... للدكتورة أميرة حلمى مطر

٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار ... للدكتور جلال يحيى

٧٦ — دورات الحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح

٧٧ — الإسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية للدكتور محمد يوسف الشواربى

٧٨ — الصحافة والمجتمع ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة

٧٩ — الوراثة ... ... للدكتور عبد الحافظ حلمى

٨٠ — الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى للدكتور محمد عبد العزيز

٨١ — ساعات حرجة فى حياة الرسول الأستاذ عبد الوهاب حمودة

٨٢ — صور من الحياة ... ... للدكتور مصطفى عبد العزيز

٨٣ — حياد فلسفى ... ... للدكتور يحيى هويدى

٨٤ — سلوك الحيوان ... ... للدكتور احمد حماد الحسينى

٨٥ — ايام فى الاسلام ... ... للأستاذ احمد الشرباصى

٨٦ — تعمير الصحارى ... ... للدكتور عز الدين فراج

٨٧ — سكان الكواكب ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
٨٨ — العرب والتتار ... ... للدكتور إبراهيم احمد العدوى
٨٩ — قصة المعادن الثمينة ... ... للدكتور أنور عبد الواحد
٩٠ — أضواء على المجتمع العربي ... للدكتور صلاح الدين عبدالوهاب
٩١ — قصر الحمراء ... ... للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٩٢ — الصراع الأدبي بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب
٩٣ — حرب الانسان ضد الجوع وسوء التغذية ... ... للدكتور محمد عبدالله العربي
٩٤ — ثروتنا المعدنية ... ... للدكتور محمد فهيم
٩٥ — تصويرنا الشعبي خلال العصور للأستاذ سعد الخادم
٩٦ — منشآتنا المائية عبر التاريخ للأستاذ عبدالرحمن عبد التواب
٩٧ — الشمس والحياة ... ... للدكتور محمود خيرى على
٩٨ — الفنون والقومية العربية ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٩٩ — أقلام ثائرة ... ... للأستاذ حسن الشيخ
١٠٠ — قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور انور عبد العليم
١٠١ — أضواء على السير الشعبية ... للأستاذ فاروق خورشيد
١٠٢ — طبائع النحل ... ... للدكتور محمد رشاد الطوبى
١٠٣ — النقود العربية «ماضيها وحاضرها» للدكتور عبد الرحمن فهمى
١٠٤ — جوائز الأدب العالمية «مثل من جائزة نوبل» للأستاذ عباس محمود العقاد
١٠٥ — الغذاء فيه الداء وفيه الدواء للأستاذ حسن عبد السلام
١٠٦ — القصة العربية القديمة ... ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
١٠٧ — القنبلة النافعة ... ... للدكتور محمد فتحى عبدالوهاب
١٠٨ — الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ للدكتور عبد الرحمن زكى
١٠٩ — الغلاف الهوائى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
١١٠ — الأدب والحياة فى المجتمع المصرى المعاصر ... للدكتور ماهر حسن فهمى

١١١ — ألوان من الفن الشعبي ... للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف
١١٢ — القطريات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
١١٣ — السد العالى « التنمية الاقتصادية » ... ... } للدكتور يوسف ابو الحجاج
١١٤ — الشعر بين الجمود والتطور ... للأستاذ العوضى الوكيل
١١٥ — التفرقة العنصرية ... ... للدكتور احمد سويلم العمرى
١١٦ — صراع مع الميكروب ... للدكتور محمد رشاد الطوبى
١١٧ — الإصلاح الزراعي والميثاق ... للأستاذ محمد عبد المجيد مرعى
١١٨ — أضواء جديدة على الحروب الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١١٩ — الأمم المتحدة وممارسة نظامها للدكتور سليمان محمود سليمان
١٢٠ — أسرار المخلوقات المضيئة ... للدكتور عبد المحسن صالح
١٢١ — التاريخ والسير ... ... للدكتور حسين فوزى
١٢٢ — تطور المجتمع الدولى ... ... للدكتور يحيي الجمل
١٢٣ — الاستعمار والتحرير فى العالم العربى للدكتور جمال حمدان
١٢٤ — الآثار المصرية فى الأدب العربى للدكتور أحمد احمد بدوى
١٢٥ — الإسلام والطب ... ... للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى
١٢٦ — الحلى فى التاريخ والفن ... للدكتور عبد الرحمن زكى
١٢٧ — نافذة على الكون ... ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
١٢٨ — الفلاح فى الأدب العربى ... للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١٢٩ — ثروتنا المائية ... ... للدكتور أنور عبد العليم
١٣٠ — التفكير عند الإنسان ... للدكتور أحمد فائق
١٣١ — رحلات الحيوان والطيور ... للدكتور مريد ينى حنا
١٣٢ — النيل فى عصر المماليك ... للدكتور محمود رزق سليم

الثمن قرشان

مطابع دار القلم